خليل رامز سركيس

س و ج و إلخ

دار الجديد

سسوج والخ

خليل رامز سركيس

س و ج وإلخ

دار الجديد

الطبعة الأولى، ٢٠١٠

ISBN: 9953-11-038-7
شركة دار الجديد ش. م. م. • صندوق بريد: ١١/٥٢٢٢ بيروت - لبنان •
هاتف وفاكس: ٥٠ ٩٨ ٧٣ - • بريد إلكتروني: Aljadeed@cyberia.net.lb

للمؤلف

في منشورات الندوة اللبنانية ـ بيروت

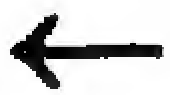
* صوت الغائب 1956
* من لا شيء 1958
* أيام السماء 1960
* وصية في كتاب 1960
* أرضنا الجديدة 1962
* مصير 1965
* جعيتا 1970

في منشورات محاضرات الندوة اللبنانية ـ بيروت

* الزنوجة، تأليف ليوبولد سيدار سنغور، مترجم عن الفرنسوية، ١٩٦٦

في منشورات La Guilde du Livre ـ لوزان

* لبنان 1967



في المنشورات العربيّة ـ باريس

* **بدايات الخليقة**، تأليف رينه حبشي، مترجم عن الفرنسوية، ١٩٦٨

في منشورات اللّجنة اللبنانية لترجمة الروائع، اليونسكو ـ بيروت

* **الاعترافات**، تأليف جان جاك روسو، مترجم عن الفرنسوية، ١٩٨٢

في منشورات دار الجديد ـ بيروت

* الهواجس الأقلية	١٩٩٣	
* جعيتا، طبعة ثانية	١٩٩٧	الرباعية
* التراب الآخر	١٩٩٧	الرباعية
* زمن البراكين	١٩٩٧	الرباعية
* أسير الفراغ	١٩٩٧	الرباعية
* زواج مدنيّ	١٩٩٩	

في المؤلّف:

* أقوال وآراء (دار الجديد ـ بيروت ٢٠٠٧)
في مؤلفات خليل رامز سركيس

س و ج

ي. ك.

جعيتا خليل رامز سركيس

نشيدٌ... نشيدُ حقّ

قصدناه في أمسية ماطرة، باردة، فوجدنا الدفء في بيته وفي ابتسامته، ابتسامة المؤمن المطمئنّ إلى ربّه، وطالب الحقيقة الواثق أن الحقيقة لا تخيّب طالبها المخلص.

والقصد كان استطلاع قصّة **جعيتا** الكتاب الذي سيخلّد مغارة **جعيتا** أكثر من أعجوبة الشموع والتماثيل فيها، وطرح بعض أسئلة كانت تجول في خاطرنا ونحن نطالع كتاب **جعيتا** الصعب الفهم والكنه ككل كتاب «ملهم» يكافئ «من يصبر إلى النهاية».

ي.ك

مجلة **الرعية**، بيروت، آذار ١٩٧١.

١ ـ لماذا اخترت **جعيتا** عنوانًا لكتابك؟

الواقع أنني ذهبت من الفكرة إلى اختيار الرمز الذي تتمثّل فيه، وكنت أتوخّى موضوعًا ذا ظواهر ماديّة تنبثق منها جوهريّات روحيّة. وكان أقصى غايتي أن أقع على هذا الموضوع في أرض لبنانية كأنما لبنان موطنٌ مسكونية روح ومادة على مستوى الإنسان متطلّعًا إلى أبعاد الله. وأذكر أنه في العام ١٩٦٥ كنت يومًا مع زوجتي في مغارة **جعيتا**، فما كدنا نلج بعض المكان هناك حتى هجم عليّ الموضوع الذي كان يشغلني منذ حين من الدهر، فقلت لرفيقة العمر: « لقد وجدتُها».

ذلك أن مغارة **جعيتا** بما تنطوي عليه من طبقات جيولوجيّة ماديّة وبما يتفجّر في هذه الرواسب الماديّة من مياه هي رمز لحقائق روحيّة ـ ذلك أن هذه المغارة تمثّل، عندي على الأقلّ، رمزًا للموضوع الذي قصدت كتابته.

٢ ـ لماذا أشركت **هي** في هذه المحاولة؟

الواقع أنه لم يكن لـ **هو** غنًى عن **هي** حتى يكتمل الإنسان بالإنسان الآخَر. هذه الآخريّة هي عندي نقطة ارتكاز أحبّ أن أبني عليه كثيرًا من محاولاتي لأنني أعتقد أن الذات وآخَرها يكمل بعضهما بعضًا وكأنهما يحقّقان شيئًا من وحدة الكائن. ولو خُيّرت لما وسعني إلاّ أن أسأل غيري لماذا لا يشرك الآخَرَ

في إنسانه هو. ذلك أن المشاركة باتت، على النحو الخاصّ والعامّ، شأنًا أساسيًا في معظم الأحوال. ولقد أوحت إليّ هي كثيرًا من هذا الكتاب كما يوحي الإنسان الآخَر إلى الذات كثيرًا من الأشياء. محاولتي، هذه، محاولةُ تفاعل يتخطّى الثنائيّة إلى الجماعيّة التي لا تفقد حرّيتها الشخصيّة.

٣ ـ لماذا سمّيت جعيتا محاولة ذات صوتين لا حوارًا؟

الواقع أنني أردت أن أحاول نفسي وآخَرها أضعاف ما أردت أن أحاورهما. من هنا كان الأسلوب هو وهي أسلوب محاولة ينبثق أحدهما من الآخَر فيما يجادل أحدهما الآخَر مجادلة هي إلى المحاولة الفكريّة أقرب منها إلى المحاورة الفكريّة. وفي ظنّي أنه لو كنت عمدت إلى الحوار، لفاتني هذا التداخل بين الأنا والآخَر. ومن هنا أيضًا جريت على النفَس الذي يتفجّر من ذاته بدلًا من أن يحاور ذاته من خلال محاورته للإنسان الآخَر.

٤ ـ ما علاقة الماضي بالحاضر وبالمستقبل في نظرك؟

لو شئت أن أختار لفظة واحدة تكون «ضابط ارتباط» بين الماضي والحاضر والمستقبل لوقع اختياري على لفظة التطوّر. فالتطوّر هو العلاقة التي تصل هذه الأبعاد الزمنيّة الثلاثة. ولولا فكرة التطوّر لما استطعنا أن نكتنه معنى الغابر ومعنى الحاضر ومعنى الزمن الآتي.

على هدي التطور نستطيع أن نقارب الله نفسه مقاربة تزيدنا

قربًا منه دون أن تبتعد بنا عن السلفيّات الحيّة من تراثنا الذي لا يموت. ولو أَبطلْنا فكرة التطوّر هذه لما أتحنا لفكرة الإيمان أن تتجدَّد لا في نفوسنا وحدها بل في نفوس أجيال كثيرة تأتي بعدنا فلا يتهيأ لها أن تقارب الله ما لم تعتمد على فكرة التطوّر. وأغلب الرأي أن الإيمان متطوّرًا لا يفقد كثيرًا من حقوقه المكتسبة بل يضاعف طاقته الفاعلة، وينمّي أسباب اتصاله ببيئات كثيرة ما كانت لترتضيه لولا فكرة التطور. وعلى هذا فالماضي يبقى حيًّا ما دام فيه معطيات تصلح لغدنا. وهكذا نحفظ سبل التواصل بين الأبعاد الزمنيّة الثلاثة دون أن نخلط بينها أو نرفض ما هو حقيق بأن نصونه ونلتزم تبعاته الروحيّة والزمنيّة.

٥ ــ يخيّل إليّ أن كتابك قصّة خلاص يتمّ في خضمّ متناقضات الحياة، فأيّ خلاص تعني؟

الخلاص الذي أعنيه هو الخلاص بالمسيح وما ينشأ عن ذلك من واجبات روحيّة وزمنيّة لا بدّ للإنسان أن يضطلع بها حتى يستحقّ الخلاص. فالخلاص ــ مع النعمة الإلهيّة ــ ليس هبة مجانيّة ولكنه استحقاق نحصّله تحصيلًا بالكدح والعرق والدموع.

٦ ــ تقول في كتابك: «لا أكاد أتحرّر من قايين حتى تتحجّر حرّيتي فأحتاج إليه لأتحرّر عن جديد». فكيف تفسّر هذا التناقض وكيف بالنهاية تجد حرّيّتك؟

الواقع أن حرّيّتي حرّيّة بشريّة، أي حريّة ناقصة لا تكتمل إلّا إذا ظلت أبدًا في نموّ وصراع من أجل أن تكتمل. حتى إذا خُيّل إليها أنها تكاد تكتمل بدا لها أنها ما تزال في أول الطريق. فهذا الصعود والهبوط هما جدليّة الحرّيّة في ما لها وما عليها. وهذا يعني أيضًا أن حريّتي، أنا الكائن الضعيف والإنسان الخاطئ والتائب الحزين، ليست حريّة مجرّدة عن المعطيات الجسديّة التي تكبّلني ولا عن المرتقيات الروحيّة التي أنزع إليها. وإنما حريّتي هي على قدْري أنا لا على قدْر الإله الذي خلقني وإن كنت أتشوّق أبدًا إلى الحريّة الإلهيّة فأتخذها قدوة أحاوِلها ولكن لا أنتهي إليها.

٧ ـ ما هي أهمّ التناقضات التي تعذّبك وكيف تتخّطاها؟

كل شيء إذا وضعناه في حالة الجدليّة استطعنا أن نوجد له نقيضه. التناقض وجه من وجوه التعايش على المستوى الفكريّ. ولولا التناقض لم يكن من صراع، ولولا الصراع لم يكن من وجود. إذن التناقض هو في أساس المحاولة التي نسمّيها الحياة. أما كيف أتخطّى التناقضات، فإنني أسير فيها على خطى سيّدي ومخلّصي أي على خطى الحبّ الذي يجمع إذ يتخطّى. فالتخطّي حبًا هو العمل التأليفي الذي يوحّد مختلف القوى المصطرعة فتكوّن مجموعة طاقات ذات غاية واحدة وإن تباينت اتجاهاتها.

٨ ـ لقد طالعت ولا شكّ الأب تيار دو شاردان، فما هي القرابة بين فكرك وفكره؟

هذا السؤال طُرح عليَّ مرارًا وكان جوابي واحدًا في كل مرّة، وهو أن من يتصدّى لموضوعات الروح والمادّة لا يسعه إلا أن يمرّ بخطّ تيار دو شاردان سواء كان هذا الخطّ موافقًا له أو كان غير موافق. فالأب تيار طبع هذا الموضوع بطابع فذّ لا بدّ من الرجوع إليه. على أن هناك شيئًا يقال له الطابع الشخصيّ أو الطابع الإقليميّ لكل كاتب. وهذا ما أحاول أن أصلِ إليه. ليس لي أن أحكم في هذا الأمر، إنما الحكم للقارئ المفكّر.

٩ ـ أسلوبك صعب، فإلى من تعزو هذه الصعوبة؟

هذا نقص عندي وعيب كبير، ولكنني مجبول بهذه الخطيئة الأصلية التي اسمها الصعوبة، والتي لم أستطع أن أتغلّب عليها في مؤلّفاتي. أمّا حين كنت، لخمس وعشرين سنة خلت، رئيسًا لتحرير **لسان الحال**، فقد كنت بنجوة من هذا العيب الفاضح. ويظهر أنّ «صعوبات» الصحافة تسهّل أسلوب الكاتب وأنّ «ميسّرات» التأليف الفكريّ تصعّب الأسلوب. خلاصة القول أن للموضوع تأثيره في الأسلوب. ولئن قيل إن الأسلوب هو الإنسان فقد يصحّ القول إن الموضوع هو الأسلوب.

محمد علي فرحات

الحرف واللسان ومدى الكلمة

خليل رامز سركيس من صفوة كتّاب العربيّة في عصرنا، نشر نفسه وفكره على الناس، وشرح صدره متوسّلًا الكلمة في مَدَيِيها، شكلًا جماليًا وعقلًا.

يقيم خليل رامز سركيس في لندن، منذ غادر منزله في بيروت (منطقة الصنائع)، وفي إقامته اللندنيّة لا يزال يمارس فرح الكتابة كما من قبل، وإنْ دفعه جرح لبنان إلى تدوين تجربته كفرد وكعضو في جماعة، عمل يعكف عليه الآن بعدما أنهى كتابة رباعيته عن العناصر: **جعيتا** (عن الماء، صدر في منشورات الندوة اللبنانية) وتليه المخطوطات الثلاث: **التراب الآخر**، **وزمن البراكين**، **وأسير الفراغ** عن التراب والنار والهواء.

جريدة **الحياة**، لندن، في ٢٨ و٢٩ و٣٠ و٣١ آذار و١ نيسان ١٩٩١.

في الحديث عن خليل رامز سركيس والكتابة عنه، تتعدّد الشؤون بقدْر غنى الرجل شخصًا وفكرًا، فهو سليل الأسرة السركيسيّة التي أنشأت **لسان الحال** إحدى أقدم الصحف اللبنانية والعربيّة وأكثرها استمرارًا، وهو الكاتب وصاحب المؤسّسة الصحافيّة العريقة، الذي صفّى المؤسسة وضحّى بها لينصرف إلى الكتابة في ما يشبه النذر. وهو أيضًا من قلّة جمعتْ جماليّة الكلمة وعمق التأمل في ما يذكّر بالكتابات الخوالد في تاريخ الإنسان، أو هكذا أراد هو على الأقلّ. ولا يمكننا نسيان حضور خليل رامز سركيس في النهضة الأدبية والفكرية في عزّها اللبناني، يوم هو أحد أركان **الندوة اللبنانية** ومستشارها الأدبي، فضلًا عن إشراقاته المتعددة في هذا الشأن أو ذاك من حقول الفكر والأدب والترجمة.

ويبدأ الكلام مع الرجل وعنه بفتح ما تيسّر من ملفّ الأسرة السركيسيّة، نستند إلى جلسات معه وإلى بعض أوراق قديمة. ولعلّ حديث الأسرة هذا يدفع الدارسين المعنيّين إلى تطويره في إطار بحث دور الأُسَر الأدبية في لبنان، وعوامل تكوين أفرادها الأدبي والفكري داخل أُسَرهم، مما يحتاج إلى دراسة الوراثة والاجتماع والتربية وما إلى ذلك. وتُذكّرنا الأسرة السركيسيّة هنا بأسر لبنانيّة ساهمت بقدر أو بآخَر في عطاء أعلام في الأدب والفكر واللغة، ومن أبرزها: آل المعلوف والبستاني والشميّل والأمين وناصر الدين والأسير وشرارة وغيرهم.

الوصيّة التنوخية

ساهم عيسى إسكندر المعلوف في اليوبيل الذهبي لإنشاء **لسان الحال** (١٨٧٧ ـ ١٩٢٧) ببحث ذكر فيه أن آل سركيس نشأوا في قرية قيطو في بلاد البترون، وانتقل جدّهم سركيس سركيس إلى بلدة عبيه (قرب عاليه) في عهد الأمراء التنوخيّين، فحظي هو وأولاده بمكانة لدى زعيم الأمراء السيّد عبد الله التنوخي (١٤١٧ ـ ١٤٧٩م، ٨٢٠ ـ ٨٨٤ هـ)، الذي سمح للعائلة ببناء كنيسة باسم مار سركيس، وخصّهم بوصيّة جاء في نصها الحرفي «ويكون لآل سركيس من غلّة أملاكنا مائة حقّ زيت ومائة شنبل قمح سنويًّا تعطى لهم موفاة براءة عن ذمّتنا». ومن بين الأسر المسيحيّة المتعدِّدة التي انتقلت من شمال لبنان إلى شوفه في ذلك العهد وما بعده، خصّ السيد التنوخي الأسرة السركيسيّة بوصية مكتوبة.

خليل سركيس

في بلدة عبيه ولد خليل سركيس (جدّ خليل رامز سركيس) في ٢٢ كانون الثاني (يناير) ١٨٤٢، وفي الثامنة من عمره انتقل مع أهله إلى بيروت، فتعلّمَ في مدرسة القسّ طمسون التي كانت في جوار مطبعة الأميركان (حيّ زقاق البلاط)، وكان يقصد المطبعة في أيام العطلة فمال إلى فن الطباعة، وفي العام ١٨٦٠ انصرف إلى الطباعة وأتقنها إلى أن أنشأ، سنة

١٨٦٨، مطبعة المعارف بالاشتراك مع المعلم بطرس البستاني وتزوّج ابنته لويزا.

سألنا خليل رامز سركيس هل كان نزول الأسرة من عبيه إلى بيروت عام ١٨٥٠ تأثرًا بفتنة ١٨٤٠ الطائفية، فأجاب أن الفتنة المذكورة «لم تصل إلى بلدة عبيه، وهناك وصيّة السيّد عبد الله التنوخي التي تؤلّف ضمانًا للأسرة».

وخليل سركيس مثله مثل معظم روّاد صحافة النهضة كان يدين بالمذهب البروتستانتي، الذي أتاح لأبنائه الشرقيين أن يتعلّموا العلوم العصرية في مدارس المبشّرين الأميركيّين.

وكان لا بدّ من السؤال البديهي:

س : خليل سركيس الجد، هل أفادته بروتستانتيتّه في تأسيس لسان الحال؟

ج : لم تكن للجريدة صبغة بروتستانتيّة أو دينيّة في وجه عامّ، وعقيدة خليل سركيس (وهو متديّن) لنفسه، ولم يُدخلها في نشاطه الصحافي والمهني، وكان حريصًا على اعتمار الطربوش، وأصرّ على ذلك في أثناء ذهابه إلى شيكاغو مشتركًا في معرضها.

س : ما حكاية معرض شيكاغو؟

ج : شارك خليل سركيس عام ١٨٩٢ في معرض شيكاغو الدولي ممثلًا لولاية بيروت، وبتمويل منه، سافر إلى شيكاغو

وأخذ معه منتجات شرقية متنوّعة مع جِمال وخيم وجماعة من البدو ولم ينسَ نارجيلته.

وفي أوّل ليلة له في شيكاغو أبلغَ ركّابُ الفندق الشرطة بسماعهم صوت النارجيلة الغريب، فأتى رجال الشرطة وفحصوا التنباك جيدًا ليتأكدوا أنه ليس حشيشة.

وكانت الرحلة إلى معرض شيكاغو خاسرة ضيّع فيها خليل سركيس معظم ثروته التي جمعها من **لسان الحال** والمطبعة ومسبك الحروف.

وبعد رجوعه إلى بيروت رغب أُصدقاؤه، وفي مقدّمهم يوسف سرسق الثري المعروف، أن يقدّموا له هديّة من المال كبعض التعويض عن خسارته فرفض قائلًا: «خسرتُ ثروتي ولا أريد خسارة كرامتي. لقد جئتُ من عبيه طفلًا في الثامنة وأحسب نفسي الآن ذلك الطفل فأبدأ السعي من جديد».

س : كان قوي الاحتمال والإرادة؟

ج : هذا صحيح، ومن المرويّ عنه أنه اعتاد قضاء العطلة الأسبوعيّة في عبيه. وفي مساء يوم خميس أُحرقتْ مطبعته حريقًا متعمدًا حتى ترمّدتْ، فذهب كالعادة إلى عبيه حاملًا باقة من الزهر إلى العائلة، ثم عاد إلى بيروت يوم الأحد وطبع **لسان الحال** في مطبعة أخرى.

س : كيف كان موقف **لسان الحال** من حركة معارضة

الاستبداد العثماني في ذلك الوقت؟

ج : الحرائق المتعمّدة سببها نشر الجريدة مقالات تساند مطلب الحريّات. كان سليم سركيس يكتب في هذا المجال مقالات يوقّعها ثم يسافر إلى مصر بعيدًا عن يد العثمانيين، كما كان الشيخ محمد الجسر يكتب مقالات بالمعنى نفسه من دون توقيع، فيحرص خليل سركيس على صفّها سِرًّا في المطبعة ويمزّق الأصل المخطوط.

س : وماذا عن مسؤوليته كناشر للجريدة؟

ج : أحرقوا له المطبعة مرّات عدّة، أما امتناع السلطة عن سجنه فمرجعه إلى شعبيته وتأثيره في الناس، كان محبوبًا ومؤثّرًا، قال فيه مارون عبود إنه كان من أقوى شخصيات لبنان.

س : هل كتب؟

ج : إفتتاحيات **لسان الحال وسلاسل القراءة** للمدارس في ستّة أجزاء، وكتاب موجّه للسيّدات بعنوان **أستاذ الطبّاخين وتذكرة الخواتين وتاريخ القدس الشريف والرحلة الإمبراطورية** في زيارة إمبراطور ألمانية غليوم الثاني إلى لبنان سنة ١٨٩٨، **ومعجم اللسان في جغرافية روسية واليابان في** أثناء حربهما أوائل القرن، ودوّن أخبار رحلته إلى الأستانة وأوروبة وأميركة، ثم وضع رواية **سعيد وسعدى**.

س : كان خليل سركيس يدير **لسان الحال والمطبعة الأدبية** ومسبك سركيس، ماذا عن المجالين الأخيرين؟

ج : الطباعة كانت حقل اهتمام وإبداع عنده، **فهو** شارك حميّه بطرس البستاني في **مطبعة المعارف**، ثم أنشأ وحده **المطبعة الأدبية** التي نشر فيها، فضلًا عن الطباعة التجاريّة، كتبًا من التراث أبرزها **نهج البلاغة** بشرح الشيخ محمد عبده وتحقيقه، **ومقامات الحريري ومقدمة ابن خلدون** بشرح وتحقيق عبد الله البستاني، **وشرح ديوان المتنبي** لليازجي **وكتاب الدرر** لأديب اسحق، هذه المنشورات وغيرها لا تزال دور النشر في لبنان والعالم العربي تنشرها مصوّرة عن طبعة **المطبعة الأدبية**.

س : وحرف سركيس؟

ج : اتفق مع ابرهيم اليازجي (كان خطّاطًا أيضًا) على صنع حروف مطبعيّة جديدة، حفرها اليازجي في الفولاذ وسكّها خليل سركيس على النحاس وسبكها في مسبكه المشهور عام ١٨٨٦، فسُمّي حرف سركيس أو الحرف الإسلامبولي. وأصدر مسبك سركيس الحرف النسخي أساسًا ومعه للعناوين والتزيين حروف الثلث والرقعة والفارسي، وشاع حرف سركيس واشتراه معظم المطابع العربية في العالم.

س : متى اعتنقت عائلتكم المذهب البروتستانتي (الإنجيليّ)؟

ج : أعتقد أن ذلك حدث مع والد خطّار سركيس (أي جدّ جدّي)، ونحن في الأصل موارنة.

س : يلاحظ أن معظم البروتستانت في الشرق من أصول أرثوذكسية، ما سبب اعتناقكم كموارنة المذهب الوافد من الغرب؟

ج : والد خطّار سركيس سأل البطريرك (أو المطران) عن معنى مقطعٍ في العهد القديم، فاستغرب كيف يجيز مسيحيٌّ لنفسه أن يقرأ العهد القديم من دون إذن الكاهن، هكذا كانت العادة. لكن والد خطّار قال للبطريرك (أو المطران): «لا أذكر أن في عقائد الكنيسة ما يمنع الإنسان من قراءة جميع فصول الكتاب المقدّس، ومن أجل ذلك أفضّل الانضمام إلى مذهب جديد وصل إلى البلاد مع المرسلين الاميركيّين البروتستانت... وحاول البطريرك (أو المطران) ثنيه عن ذلك فأجاب: إن حرّيّة السؤال أول حرّيّات الحياة».

لكن هذا الموقف لم يقطع حسن العلاقة بين السركيسيّين والطائفة المارونية. حتى إن والدي رامز سركيس صاحب **لسان الحال** عمل على إطلاق اسم البطريرك الحويك على الشارع

الذي كانت تقع فيه مكاتب الجريدة، كان صديقًا للبطريرك الذي كثيرًا ما خاطبه قائلًا: «لو بقيتَ مارونيًا لربّما صرت رئيسًا للبلاد.»

س : كيف وفّق قدامى البروتستانت الشرقيين في رأيك بين دعواتهم الوطنيّة وكنيستهم الغربيّة؟

ج : من الذين أسسوا الكنيسة الإنجيّليّة في لبنان المعلّم بطرس البستاني (حمو جدّي). وكانت في أول عهدها متصلة بالإرسالية الأميركية، كما كان المعلّم بطرس الترجمان الفخري لقنصليّة أميركة العامّة.

بقيت الكنيسة مدّة تحت ظلّ المرسلين، إلى أن قال لهم جدّي خليل سركيس في أوائل القرن العشرين: «نحبّ أن تكون لنا كنيستنا الإنجيليّة الوطنيّة رغم طيب العلاقة بيننا وبينكم، لأن الأب الإيجابي يرغب لابنه أن يستقلّ». وقاد خليل سركيس حملة (بالطبع إيجابيّة)، انتهت إلى موافقة الأميركيين، فانطلقت «الكنيسة الإنجيليّة الوطنيّة في بيروت» التي أصبحت الكنيسة الأمّ للإنجيليين في معظم أنحاء الشرقين الأدنى والأوسط. وكان استقلال الكنيسة الإنجيليّة في اجتماع مشترك بين المرسلين والوطنيّين عُقد في بيتنا في زقاق البلاط. وحين اشتعلت الحرب العالميّة الأولى ودخلت الولايات المتّحدة فيها صادر العثمانيون المطبعة

الأميركية في بيروت ولم يتدخّلوا في ممتلكات الكنيسة لأنها ذات هويّة وطنية.

س : هل عمل أحد أفراد عائلتك في التبشير الإنجيليّ؟

ج : لا، ونحن الفرع البروتستانتي الوحيد في العائلة. الباقون موارنة ولا يزالون.

رامز سركيس

فيما تركّزت شخصيّة خليل سركيس مؤسس **لسان الحال** على الحرفية المتقنة الطباعة والنشر والوجاهة في مجتمع لبنان القرن التاسع عشر، كان ابنه رامز سركيس صحافيًا تعاطى السياسة في بدايات تكوين الدولة اللبنانية، وقضايا النشوء وصراعات الكتل السياسيّة. نمط من السياسيين نادر، قال غسّان تويني في تأبينه في العام ١٩٥٥: «حسْبنا تمجيدًا لذكرى رامز سركيس النائب والوزير أن نسأل الإنسان في بلادنا أن يسقي تربة مَن سقانا زوم قلبه ولم نرتوِ... وإذا كان يكفي رامز سركيس عند الله تكفيرًا عن مساهمته في السياسة أنه كسر العقدَ الجهنّمي (الذي أحال الدولة مغانم وأسلابًا بدل أن تكون هيئة اجتماعية منظّمة للخير والحقّ) وخرج منه، فمن حقّنا في ذكراه أن نسأل الإنسان في بلادنا أن يدرك قيمة البذل الصامت الذي كان، علّه يستمدّ من إدراكه قوة تنصره على الشيطان الذي كدنا أن نصبح.»

توفي خليل سركيس سنة ١٩١٥، وقبل سنة أوقف هو وابنه رامز إصدار **لسان الحال**. كانت الحرب العالمية الأولى اشتعلت، ورامز خليل سركيس لم يكمل بعد أسابيع في منصبه كترجمان شرف في القنصلية الألمانية العامّة في بيروت، فرأى أن يقدّم استقالته من المنصب، وأوقف **لسان الحال** أيضًا مدّة أربعة أعوام وبضعة أشهر إلى أن انتهت الحرب، فواصل إصدارها.

انتُخب رامز سركيس نقيبًا للصحافة اللبنانيّة ستّ مرات في الفترة بين عامي ١٩٢١ و١٩٤٤، وشغل عضويّة مجلس بلديّة بيروت بين عامي ١٩٣٧ و١٩٤٠، وتولّى منصب وزير التربية الوطنيّة والفنون الجميلة من ١٩٤١ إلى ١٩٤٢، وانتُخب نائبًا لبيروت عن الطائفة الإنجيليّة في برلمان عام ١٩٥١.

س : رامز سركيس اندرج في الشأن السياسي مباشرة بخلاف خليل سركيس مؤسّس **لسان الحال**. ماذا تذكر من مواقفه كسياسي؟

ج : تعاطى والدي السياسة في البداية من خلال **لسان الحال**، كان شارل دبّاس أوّل رئيس للجمهورية من زواره المواظبين، وكذلك رعيل السياسيين من ذلك الجيل. كانت تربط والدي رامز سركيس علاقة قوية بأيّوب ثابت، ورأى والدي أن ثابت أجدر منه للنيابة، قال له: «إذا تولّيتُ أنا النيابة

نخسر **لسان الحال**، والأفضل أن تتولّى النيابة أنت فتكسب البلاد جهدينا معًا». كان أيّوب ثابت يردّد أنه مدين بالنيابة لوالدي.

وفي العام ١٩٢٦ عند وضع الدستور اللبناني أشار والدي على أيّوب ثابت أن لا يخوض المعركة الانتخابيّة وأن ينسحب لمصلحة ميشال شيحا (مقعد الأقليّات) لأنه أدرى بشؤون الدستور الذي يضعه المجلس النيابي، قال: «مثلما اعترفتُ لك سابقًا بأنك أجدر منّي للنيابة، فإني أعتبر ميشال شيحا أجدر منك لصياغة الدستور». فغضب أيّوب ثابت من هذا الكلام، وبعد الانتخابات فاز ميشال شيحا الذي أيّده رامز سركيس.

الجفاء الذي حلّ بين والدي وأيّوب ثابت ما لبث أن حلّ محلّه الصفاء، حتى إن الوالد أيّدَ أيّوب ثابت في انتخابات العام ١٩٤٣ ضد موسى دو فريج ابن شقيقة ميشال شيحا ومرشّح الدستوريين آنذاك.

س : متى تولّى رامز سركيس مقعد النيابة؟

ج : خاض الانتخابات عام ١٩٣٧ في «قائمة بيروت الشعبيّة» مع عمر بيهم ورياض الصلح وجان تيان وحبيب ربيز وهاغوب إسكندريان، وربما سواهم أيضاً، وفي المقابل لائحة يساندها رئيس الحكومة خير الدين الأحدب وسلطة الانتداب،

وكان في عدادها جورج ثابت وحبيب أبو شهلا وشفيق ناصيف وغيرهم، وفازت اللائحة الأخيرة بطبيعة الحال.

وفي انتخابات ٢٥ أيّار ١٩٤٧ الشهيرة (اتُّهمت الحكومة فيها بالتزوير لمصلحة محازبيها)، ترشّح رامز سركيس منفردًا ونال عددًا كبيرًا من الأصوات. أحبّ أن يثبت موقفًا على رغم معرفته بالنتيجة السلبية.

وفي العام ١٩٥١ ترشّح عن مقعد البروتستانت المستحدث في لائحة بيروت الكبرى، مع سامي الصلح وصائب سلام وعبد الله اليافي وأمين بيهم وحبيب أبو شهلا وهنري فرعون وموسى دو فريج ورشيد بيضون وجوزف شادر وموسيس ديركالوستيان، فنجح هو واللائحة.

س : كيف كانت علاقة رامز سركيس بالشيخ بشارة الخوري؟

ج : هي من سنة ١٩٢٦ علاقة صداقة، وقد استأجر الشيخ بشارة الخوري طابقًا في بيتنا في زقاق البلاط، شارع خليل سركيس، في أوّل عهده في السياسة، وكان يقيم معه أخو زوجته ميشال شيحا. وفي هذا البيت وُلد الشيخ ميشال الخوري (الحاكم الحالي لمصرف لبنان). في تلك الفترة تولّى الشيخ بشارة رئاسة الحكومة، وبقيت العلاقة علاقة جوار وصداقة.

س : أما زال بيتكم في زقاق البلاط؟

ج : تركناه سنة ١٩٢٨ خوفًا من أن يتهدّم، كنّا نشعر أنه آيل للسقوط، وانتقلت ملكيته إلى السيد دورافور مدير المساحة الذي خصّصه مركزًا للدائرة. ومضى الزمن وحدث الزلزال عام ١٩٥٦ وظلّ البيت قائمًا، ثم هُدم في وقت لاحق وأقيم في مكانه مبنًى سكني كبير.

س : أين سكنتم بعد العام ١٩٢٨؟

ج : في منطقة الصنائع حيث عمّرنا البيت في شارع سبيرز.

س : من عمّر البيت في زقاق البلاط ومن هو مهندسه؟

ج : جدّي خليل سركيس، أما المهندس فلا أعرف، ربّما كان شخصًا مشهورًا في ذلك الزمن اسمه بشارة أفندي المهندس، أعتقد أنه هو.

س : ومهندس منزل الصنائع؟

ج : هندسه بهجت عبد النور وفؤاد أمين عبد الملك وجوزف نحّاس، ووُضعت بنايتُه على لائحة التراث الوطنيّ.

س : هل لحظوا في هندستهم معالم البناء اللبناني التقليديّ؟

ج : تلك كانت الهندسة الشائعة عندنا في فترة ما بين الحربين العالميتين. أبقوا على القناطر الثلاث، ولكن عدّلوا من شكلها.

س : نعود إلى موقف رامز سركيس، خصوصًا في السنة السياسيّة العصيبة في لبنان ١٩٥١-١٩٥٢ التي أدّت إلى استقالة الرئيس الشيخ بشارة الخوري ولم ينه ولايته الثانية التي جدّدها في رئاسة الجمهورية.

ج : موقفه كان موقف كتلة نوّاب بيروت، كان اتفاقهم قبل الانتخابات المحافظة على وحدة الصفّ، وأن يكون قرار الأكثرية ملزمًا لكلّ منهم.

في أول الأمر أيّدوا بقاء الشيخ بشارة في منصب الرئاسة وعدم دفعه إلى الاستقالة. لكن، لاحقًا، رأت الكتلة أن هناك تيارًا شعبيًا يستدعي التغيير بعدما انطلقت التظاهرات في بيروت وأكثر المحافظات اللبنانية.

كان رامز سركيس يقول:

«أنصح لكلّ سياسي أن لا يثير تيّارًا شعبيًا إلا بعد أن يثق ثقة تامة بقدرته على السيطرة عليه، وإلا وصلنا إلى مفاجآت أو نتائج غير منتظرة. حتى في البلدان الديمقراطيّة العريقة لا يثيرون تيّارات شعبيّة غير منضبطة. أما ونحن في لبنان والشرق في بداية تمرّسنا بالديمقراطيّة بعد ٤٠٠ سنة من الحكم العثماني، فإن الحكمة والولاء للوطن والحرص على الوحدة الوطنيّة تدعونا، بل تفرض علينا، أن نفكّر مرّتين أو بضع مرّات قبل أن نغامر بالرصيد القليل الذي في حياتنا السياسية العامة».

س : أتعتقد أن الموقف في سنة ١٩٥٢ مع الشيخ بشارة الخوري كان مقدّمة أولى للمشكلات الموسميّة في السياسة اللبنانية؟

ج : ليس هذا رأيي وحدي، بل هو أيضًا رأي الشيخ بشارة نفسه، وقد سمعته منه بأذنيّ الاثنتين؛ إذ قال لأبي وقد زرته مع الوالد بعد استقالته بأسبوع في بيته في عاليه: «من الآن فصاعدًا، سنرى رئاسة الجمهورية في صميم المعترك والتجاذب بشكل سيفقدها الكثير من سلطتها، وهذا ليس لمصلحة اللبنانيّين».

س : ما كان موقف الوالد عام ١٩٥٢ من الانتخابات الرئاسيّة بعد استقالة الشيخ بشارة؟

ج : كما تقدّم قولي، فإن الوالد مثْل سائر أعضاء كتلة نوّاب بيروت التزم القرار الذي تتّخذه الأكثرية ويلزم الأعضاء كافة.

أما في أثناء المناقشات الداخليّة للكتلة، فقد كان رأي والدي أن يُنتخب حميد فرنجية لا كميل شمعون، وقال لشمعون: «إنني أنتخبك لأن هذا قرار الكتلة لا قراري»، مع أنه ليس بين والدي وحميد فرنجية صداقة حميمة.

وكان الوالد يتوسّم في إميل البستاني رئيسًا للمستقبل، ولم يتوقّع أن يُحرم لبنان قبل الأوان تلك الشخصية الغنيّة الفذّة التي

عرفتْ كيف تقرّب بين الأبعاد وتجمع بين الأضداد.

س : هل تولى رامز سركيس الوزارة؟

ج : كان، كما تقدم ذكره، وزيرًا للتربية بين ١٩٤١ و١٩٤٢ في عهد الرئيس ألفرد نقاش وحكومة أحمد الداعوق، مع حميد فرنجية وزيرًا للخارجية، والسيّد أحمد الحسيني للعدل، وألفرد سكاف للصناعة، وجوزف نجار للأشغال، وحكمت جنبلاط للصحّة، وواصف عزّ الدين للإعاشة والتموين، وتولّى نيابة رئاسة مجلس الوزراء ووزارة الداخلية فيليب بولس.

س : إنجازاته في وزارة التربية؟

ج : أنشأ تقليد عيد الأمّهات السنوي في لبنان، والأسبوع الثقافي بمشاركة مارون عبّود وعمر فاخوري وميخائيل نعيمة وصلاح الأسير (كان سكرتير **الأسبوع**). وطوّر منهاج البكالوريا التي أسسها جبران تويني، لكن الوزارة استقالت قبل إقرار مشروع التطوير. وكان رامز سركيس يرى عمل جبران تويني في وزارة التربية حدثًا أساسيًّا في برامج التعليم في لبنان. ثم أنشأ إصلاحية الأحداث سنة ١٩٤٢.

س : كتاباته؟

ج : إفتتاحيات **لسان الحال**، وكان من أرشق كتّاب الرسائل.

س : **المطبعة الأدبية** في عهده؟

ج : بقيت مطبعة تجارية ناشطة. أما النشر فكان قليلًا ونوعًا من الاستمرارية والمحافظة على المظهر، ومما نُشر كتاب **جبران خليل جبران** لميخائيل نعيمة. كان الوالد منصرفًا إلى السياسة.

س : **ولسان الحال؟**

ج : بقي يهتمّ بها إلى سنة ١٩٤١ يومَ صار وزيرًا، فتسلّمتُها منه وحوّل لي امتيازها. لقد تسلّمتُها بالوراثة لا بالموهبة.

س : بين ١٩٤١ و١٩٥٥ (سنة وفاته) ماذا كان رامز سركيس يفعل؟

ج : تولّى الوزارة والنيابة ونقابة الصحافة، كما ذكرتُ قبلًا، وشارك في معركة ١٩٤٣ (الاستقلال) وعضوية مجلس بلدية بيروت، كان منطلقًا في نشاطه السياسي والاجتماعي، وكان يخاطبني بالقول: «لولاك لم أكن أستطيع الاهتمام بالسياسة».

س : قلتَ إنك تسلّمتَ **لسان الحال** بالوراثة لا بالموهبة ـ تواضع ـ ولكنك أدرت **لسان الحال** بين ١٩٤١ و١٩٥٩ سنة احتجابها، كيف؟

ج : تحمّلتُ مسؤولية إدارتها مؤسسةً وجريدةً، وأحيانًا كنت أكتب افتتاحياتها. عملٌ مضنٍ إذ إنني كنت أنصرف في الليل إلى نفسي، أي إلى التأليف.

س : أتذكر أسماء بعض المحرّرين في **لسان الحال** خلال عهدك؟

ج : نجيب ليان (سكرتير عام الجريدة)، أحمد دمشقية (والد الكاتب والأستاذ الجامعي عفيف دمشقية)، بطرس معوض (انتقل لاحقًا إلى **الأحرار**)، نبيه سلامة (آخر سكرتير تحرير لـ**لسان الحال**). وكان كرم ملحم كرم يطلّ بمقالات خاصّة على رغم امتلاكه مجلة، ونشر شبلي الملّاط قصائده أيام والدي وأيامي، وكان الشاعر بشارة الخوري (الأخطل الصغير) يكتب نثره في **لسان الحال**، وقد تدرّج وفيق الطيبي في عهد أبي إذ نصحه شقيقه عفيف الطيبي: «لا تتدرّج عندي فالأخ لا يستطيع تربية أخيه في الصحافة».

لم تكن الجريدة في أيامي واسعة الانتشار، لكن بقيتُ محافظًا على طابعها.

س : **والمطبعة الأدبية؟**

ج : كنت أخفّف تدريجًا من عملها. ألغيت المسبك، إذ جاء اللينوتيپ فأراحني من أحد الاهتمامات...

س : أما خطر لك أبدًا تجديد المؤسسة؟

ج : كنت نويت التصفية وبدأت أهيّئ لها. فأتى أميل خوري (سفير وصحافي في **الأهرام**) بمشروع يقضي بتوأمة **لسان الحال والأهرام** (قبل تأميم الصحافة المصريّة). وأذكر

أن آخر اجتماع عُقد في هذا الشأن كان في مكتب النائب رشاد عازار، صديق إميل خوري، في منطقة رأس النبع. بعد ذلك مات والدي وإميل خوري في السنة نفسها، وأتت تأميمات الصحافة في مصر فألغت المشروع من أساسه.

س : كيف تقيّم المؤسّسة في أيامك؟

ج : عاشت بقوة الماضي. مؤسّسة عمرها حوالى مئة سنة لا تموت بالهيّن.

س : علامَ قامت موازنة **لسان الحال** كجريدة؟

ج : على الاشتراكات (كان عددها كبيرًا جدًا) والإعلانات أكثر ما يكون. مع ذلك كانت الجريدة مشروعًا خاسرًا، وكنّا نعوّض الخسارة من المطبعة. وقبل ذلك من مسبك الحروف.

س : أين كنتم تسوّقون إنتاج مسبك الحروف؟

ج : في مختلف البلدان الناطقة بالعربية. أذكر آخر شحنة في العام ١٩٤٠ إلى مطبعة پرساما پرس في سنغافورة، ثم وقعت الحرب العالمية الثانية، وعلمنا أن اليابانيين نسفوا پرساما پرس ولكن قبل نسفها كانت تلقّت الشحنة ودفعت الثمن في المصرف الذي أغلق فرعه في الحرب وفتحه بعد نهايتها. ووصل إلينا ثمن الشحنة بعد ستّ سنوات من إرسالها، وكانت هديّة غير منتظرة.

س : كيف كنتم تبيعون الحروف؟

ج : بالوزن. يأتينا مثلًا طلب بعشرة كيلوغرامات من حرف الألف أو ستّة كيلوغرامات من حرف الجيم. وهناك طاقم كامل بالكمية المطلوبة من الحروف يراعي نسبة استخدام كل حرف في الطباعة.

س : سيرتك في **لسان الحال** كأديب رافض مسؤوليات الإنتاج الصحافي؟

ج : ليست الصحافة مهنتي. وأكره شيء عندي أن تفرض الوراثة عليّ عملًا محدَّدًا. صارت **لسان الحال** «تنوص» معي وتضعف.

كنت أشرف على التحرير وأكتب معظم الافتتاحيات وأدير الجريدة والمطبعة والمسبك! عمل يستغرق حوالى عشر ساعات في اليوم.

أذكر نزولي مشيًا من بيتنا في السادسة صباحًا، أمشي على الطريق البحري من جهة ميناء الحصن والسان جورج وأرى مقامري آخر الليل عائدين من سهراتهم. أُصبّحهم فيقولون لي: مساء الخير... وأعود من العمل في التاسعة مساء فأرى الحارس البلدي نائمًا في بيت السلّم، فأمشي على رؤوس أصابعي إلى البيت حتى لا أوقظه... وأوّل ما ارتحت منه هو عبء المسبك.

س : أين كان مقرّ الجريدة؟

ج : عند تأسيسها كانت في سوق أياس حيث أُنشئتْ بعد

ذلك مطبعة كان صاحبها الشهيد الشيخ أحمد طبّارة. ونُقلتْ **لسان الحال** قبيل الحرب العالمية الأولى إلى شارع البطريرك الحويك، أي في نهاية شارع باب إدريس لجهة البحر وقبل خان أنطون بك (فوق ما كان يسمّى ميناء الخشب) وبقيتْ هناك حتى بعتُها في أواخر العام ١٩٥٩.

س : مواعيد صدورها؟

ج : هي جريدة يومية، تصدر خمسة أيام في الأسبوع، وفي آخر عهدها معي أصدرتها أربعة أيام في الأسبوع. كنت في صدد تصفية المؤسّسة، حتى إنني طبعتُ أربعة من مؤلّفاتي في مطابع **دار الأحد** (آل البحيري) وليس في **المطبعة الأدبية**.

س : كيف بعتَ **لسان الحال**؟

ج : كنت في مرحلة التصفية، فجاءني جبران حايك مع توصية من صديقي جورج ريّس (مدير فندق البريستول) فتنزّلتُ لحايك عن **لسان الحال** مقابل ثمن رمزي قدره ٢٥ ألف ليرة لبنانية سدّدها على دفعات.

ملعقة الذهب وملعقة الخشب

نتحدّث عن خليل رامز سركيس، عن حياته والتنشئة الثقافية، وهو يعكف على كتاب جديد موضوعه هذه المرّة رؤى الطفولة وسيرته في العائلة والمجتمع وآفاق الفكر.

لذلك نكتفي بقبسات شفهية ليبقى كتاب السيرة سائلًا من

قلم صاحبه إلى حبر المطابع فالنشر على الناس.

س : الولادة؟

ج : بيروت ١٩٢١، في منزلنا في بيروت، زقاق البلاط، شارع خليل سركيس.

س : الوالدة؟

ج : روز رزق، مولودة في حمص.

س : أطياف الطفولة؟

ج : صبي وحيد بين بنتين، وعلى رغم ذلك ربّاني والداي للاعتماد على النفس والشعور بالكرامة والحرّيّة منذ الصغر. كانت أمّي تقول: «لا تقولوا وُلد وفي فمه ملعقة من ذهب أريد له ملعقة من خشب».

س : مدى الحركة الأولى؟

ج : اللعب في حديقة البيت حيث نخلٌ وليمون وتين إفرنجي وحبّ الآس. الحديقة الخلفية لشجر الفاكهة والأمامية للزهور.

س : ألعاب؟

ج : حصان من خشب (أرادني والدي لتعلّم الفروسيّة وهو كان يملك فرسًا) وسائر الألعاب المعهودة ذلك الزمن، لكنني أَحببت الألعاب التي تشغل الفكر (ثقافيّة) على قلّتها في تلك

الأيام كتكملة الرسوم مثلًا.

س : ما قبل المدرسة؟

ج : قبل أن أعرف القراءة كنت أرى المسوَّدات الطويلة (بروڤات أعمدة الجريدة) يأتون بها إلى البيت ولها رائحة غريبة، رائحة حبر المطابع.

كنا نلعب أنا والشيخ ميشال الخوري في حديقة البيت، الطابق الأول من بيتنا كان يستأجره الشيخ بشارة الخوري كما تقدَّم لي قوله. أذكر، كانت في بيتهم غرفة خاصّة للبلياردو، وأذكر الشيخ بشارة يلعب مع القاضي شكري القرداحي، ومرّة وصل إلى البيت الشيخ محمّد الجسر رئيس مجلس الشيوخ يزور رئيس الوزراء الشيخ بشارة الخوري، فترك الأخير لعبة البلياردو وانصرف الجميع إلى حديث السياسة.

س : المدرسة الأولى؟

ج : **الإنجيلية الفرنسويّة (كولّيج بروتستانت، لويز ويغمان** في ما بعد)، في مبناها القديم في شارع جورج پيكو (منطقة الستاركو)، المدرسة مختلطة، كان عمري حوالى خمس سنوات. وبعد ذلك في يسوعية الصغار، في مبناها الحالي حيث أنهيت المرحلة الابتدائية، ثم انتقلت إلى القسم الفرنسوي في **المدرسة الثانويّة العامة (I.C.)** حتى نهاية المرحلة الثانوية.

س : رفاق الدراسة؟

ج : في يسوعية الصغار: پيار إده، مرسيل نمور، كمال برّاج، فرنسوا جينادري وشقيقه (وهما توأمان حقيقيان)، لطف الله ملكي، فؤاد أميوني، حسني الخطيب، فاروق رفعت، أوسكار جان عسلي، حسين حيدر، إدمون خياط، روجيه شيخاني، فؤاد تلحوق وشقيقه، جورج ملاط، وغيرهم.

وفي **الثانوية العامّة**، بالإضافة إلى من انتقل معي من يسوعية الصغار: أنطون غطاس كرم، كمال يوسف الحاج، عدنان بيضون، شفيق وعبد القادر الفاخوري، فؤاد أبو حيدر، فوزي إبرهيم شحادة، فاروق وجيه بيضون، محمّد منصور، جورج عبد الله غرّة، فؤاد رضا، ميشال نقولا مالك، كمال بولس الخولي، بنيامين دبغي، فريد يوسف النجّار، عادل نجيب عرداتي، علي الشعّار، جان موقديه، ناصر الدندشي، إبرهيم خرما، عصام بيهم، وغيرهم.

ملامسة الكلمة

س : ملامسة الأدب في المرحلة الثانوية؟

ج : حين دخلنا الصفّ المتوسّط الأوّل أثّر فينا أستاذنا فؤاد سليمان. قال إن البرنامج المدرسي لا يكفي، فبدأنا قراءات في الصفّ بإشرافه أولها كتاب **جبران** لميخائيل نعيمة الذي نشرته **المطبعة الأدبية**، ثم قرأنا **الصبي الأعرج** لتوفيق

يوسف عوّاد وعشر **قصص** لخليل تقيّ الدين. وفي آخر السنة المدرسية أوصانا فؤاد سليمان بقراءة المزامير كما ترجمها إبرهيم اليازجي (طبعة اليسوعية) وكُتبَ أمين نخلة لكي نمتّن عربيتنا، وأيضًا أعمال الشاعرين سعيد عقل وميشال طراد، كان فؤاد سليمان يستكتبنا مقالات خاصّة، وكنّا مشدودين إليه لأنه معلّم غير تقليديّ.

في صفّ البكالوريا علّمنا الشيخ خليل تقي الدين وهو يومئذ سكرتير لمجلس النوّاب، كان يُدرّسنا مادّة الترجمة والنقد الأدبي، وشعرنا أننا أمام كاتب أديب ليس معلّمًا بسيطًا. أذكر، وصل مرّة ومعه كتاب **اعترافات فتى العصر** لألفريد دو موسيه ترجمة فليكس فارس، فطلب منا أن نترجم صفحة من الكتاب إلى العربية، ثم قارن ما ترجمنا بترجمة فليكس فارس. قال لي: «ترجمتك أفضل من ترجمته فهل اطّلعتَ عليها سابقًا»؟ فساءني كلامه لكنه ربّت على كتفي ملاطفًا. كان خليل تقي الدين وقتها يشيع أجواء حركة **المكشوف** من خلال تدريسه، فصرنا نقرأ تلك الجريدة الأسبوعيّة لندخل في أجواء الصفّ. وكان الصفّ يجري على برنامج **المكشوف** لا على برنامج البكالوريا.

س : قراءاتك الشخصية في تلك المرحلة؟

ج : مثل أبناء جيلي قرأت من مارون عبّود إلى طه حسين

إلى عمر فاخوري (دعوناه ودعونا سعيد عقل لإلقاء محاضرة في الثانوية العامّة) **وكليلة ودمنة** وأعمال الجاحظ. تأثّرت بما قرأت. أحببت **نبي** جبران رغم إحساسي أن الأصل الإنكليزي أفضل. في اعتقادي أن أفضل ترجمة هي النصّ الفرنسوي الذي كتبه كميل أبو صوّان.

س : المتنبي؟

ج : في مرحلة لاحقة.

س : كتب دينيّة؟

ج : القرآن الكريم والكتاب المقدّس، أوصاني أبي بقراءتهما ففعلتُ، كان يوجّهني من دون أن يفرض عليّ. ووجّهني كذلك لقراءة **نهج البلاغة** وأعداد مجلة **الضياء** لإبرهيم اليازجي.

س : قراءاتك الأجنبية في تلك الفترة؟

ج : الكلاسيكيات الفرنسوية، والإنكليزية (في لغتها وأحيانًا مترجمة إلى الفرنسوية)، قرأت مثلًا **هملت** بالإنكليزية ثم بالفرنسوية بترجمة أندريه جيد وبترجمة إيف بونفوا. وعلى رغم أن جيد وقف ١٣ سنة أمام الفصل الثالث من **هملت** حتى أنجزه، فإن ترجمة بونفوا في رأيي أفضل. كنت أحسّ في ترجمة جيد رنّة معدنية في العبارة. لكن، في ترجمة بونفوا، أحسستُ برنّةِ وتَرٍ من لحم ودم. هذا الإحساس المزمن يحكم

قراءاتي، لا أتركه ولا يتركني.

س : وغير الكلاسيكيات، من الآداب الأجنبية؟

ج : طلبت سنة ١٩٣٧ من باريس أعمال آرثر رامبو Arthur Rimbaud، والطبعة لا تزال في حوزتي الشخصية إلى الآن (منشورات مركور دوفرانس)، وربّما كانت من أوائل كتب رامبو التي وصلتْ إلى بيروت، استعارها منّي أصدقاء وطبعوها على الآلة الكاتبة.

سنّ التأملات

س : حلمك في ذلك الوقت؟

ج : أن أكتب. لم أطمح إلى تغيير العالم. كنتُ أُحبّ أن أكمل نفسي لا أن أغيّرها، أن أصنع نفسي حتى تكتمل، لأن التغيير للتغيير لا يعني شيئًا كثيرًا، إلا أن يتّصل بمقولة الأفضل المستمرّ.

س : ثورة الشباب؟

ج : كنت أرى أن الثورة الحقّ تنبع من الجذور، ولا تتبرّأ من الأصول أو تجنح إلى ثوريّات متعاقبة يلتهم بعضها بعضًا، وكأن كل ثوريّة منها غاية برأسها. في حين أن كل حركة ثوريّة في رأيي وسيلة إلى غاية أكبر منها وأعمّ وأبقى، وهي الحياة الحرّة المبدعة.

س : أهكذا فكّرت في تلك المرحلة؟

ج : نعم، وفي الوقت نفسه كان لي هوًى خاصّ بالجماليّات الخارجيّة، وأعتقد أنها تتّصل بأعماق داخليّة لا سبيل إلى التعبير عنها إلا من خلال الظواهر الخارجيّة.

س : بدايات الكتابة؟

ج : همتُ باللغة العربية أيّ هيام، ولكن رأيتُ أن أقاربها أوّل الأمر من الخارج إلى الداخل، فابتدأتُ بالخطّ العربي. درسته في محترف الخطّاط كامل البابا، وقد تفضّل عليّ بساعات من صبره الجميل وقلمه الأجمل، فعلّمني الخطّ الفارسي والرقعي والديواني والديواني الجلي، والثلث، (البابا من تلاميذ نجيب هواويني). ثم راسلتُ الخطّاط هواويني. وممّا قد يقال له وجه الموضوع، أخذتُ أوغل في صميمه أو ما أحسبه الصميم، لغة وكتابة وإبداعَ أسلوب.

منذ الصغر كرهتُ القوالب الجاهزة، بحيث أبَيتُ أن أكتب لفظة يسبقني القارئ إلى ما يليها، إذ بدا لي أن سِرَّ الكتابة يكمن في ما يقال له «الصدمة». لا يعني هذا أن تكون العبارة بلا أصل، ولكن الصدمة الأصلية لا يُعلى عليها في رأيي، أما إن لم تكن أصلية فقد يصحّ أن تسمى صدمة قاتلة للنصّ إن لم يكن للقارئ أو للكاتب...

س : أثناء الدراسة الثانويّة هل كنت تكتب في **لسان الحال** أو لـ**لندوة اللبنانية**؟

ج : **قبل الندوة اللبنانية** كانت هناك **ندوة الاثني عشر** أسّسها ميشال أسمر أيضًا، وكان فيها بالإضافة إليه: أحمد مكي، إدوار حنين، سامي الشقيفي، فؤاد حدّاد، كمال يوسف الحاج، كريم عزقول، جورج دياب، خليل رامز سركيس وغيرهم.

حدث ذلك عام ١٩٣٧ وكنت طالبًا في الثانويّة العامّة. كنا نجتمع في غرفة نوم ميشال أسمر في حيّ التينة، شارع بطرس كرامة، كل يوم خميس من السادسة مساء إلى نصف الليل، فنطرح موضوعات أدبية معيّنة نتناقش فيها، وكنّا نخصّص جلسة أو جلستين في الشهر لقراءة ما كتبه بعض منّا وكنا ننقد هذه النصوص. وقد دعونا إلى هذه الجلسات بعض الذين تقدّمونا في مجال الكتابة والتعليم أمثال تقي الدين الصلح (كان أستاذًا في معهد الليسيه الفرنسوي) وفؤاد أفرام البستاني (كان أستاذ الأدب العربي في جامعة القدّيس يوسف) وجورج شحادة الشاعر.

في ذلك الوقت كنتُ أنشر كتاباتي في الصفحة الأدبية لـ**لسان الحال**، ومرّة اتّصل بي جبران تويني فشجّعني على أن أستمرّ في الكتابة. كان قرأ نصًّا لي نشرته لاحقًا في كتابي **من لا شيء** وعنوانه **صديق** ومما جاء في النص:

أصيب أبي، مرة، بوعكة أقعدتْه أيّامًا، ثم عافاه الله. فنصح

له الأطباء بترك النارجيلة، فامتثل، وهجر سلواه المؤنسة التي ظلّ ربع القرن، أو يزيد، لا يكاد يميل عنها إلا إليها. فخُيّل إليّ، عندئذٍ، أن والدي قد أوتي، بضرب من الإرادة الأبوية، إعجازًا خارقًا. ولولا بعض الذي كان منه، ساعة يحين الموعد المحرّم، لم ألحظ قطّ أن الإدمان قد تمكّن من طبعه إلى هذا الحدّ.

ولكن لم ينقضِ الشهر على تركه النارجيلة حتى عادت تلحّ عليه، فقاومها ما استطاع، ثم استسلم إليها دفعة واحدة.

ولن أنسى، ما حييتُ، كيف دخلتُ عليه، ذات ليلة، والنربيج بين شفتيه، وقد اطمأنّ لرجوع نفسه إليه...ولا كيف انحلّ، في تلك الساعة الحاسمة، اللغز الذي بيني وبينه، بل بين كل أب وولده، إذ تبادلنا النظرات، ولم تكُن لنا حاجة إلى التخاطب ليفهم واحدنا الآخَر فهمًا إنسانيًا عميقًا. وهكذا أظلمتْ في خاطري الصورة السَنيّة التي تزيّن أذهان الأولاد حين يتمثّلون آباءهم في عصمة، وأدركت للمرّة الأولى أن الحاجز الذي كان يفصلني عن أبي قد انهار، وأن أبي، هو أيضًا، إنسان يشقى مثلي في الحياة ويسعد.

ومع أني نزعتُ من سجلّ المُثل صفحةً من أجَلِّ الصفحات وأخصِّها بالنفس ثم أحرقتُها، لستُ أذكر أني أسفتُ عليها كثيرًا، لأني اكتشفتُ في رمادها جبلة الإنسان السويّ وصفوة الصديق الجديد.

س : كيف مضيت في الكتابة أنت **والاثنا عشر**؟

ج : قرّرتْ **ندوة الاثني عشر** عام ١٩٣٩ الخروج من غرفة نوم ميشال أسمر إلى مجال أوسع، فاتصلتْ بالجمهور المعنيّ بالأدب عن طريقين:

محاضرات أسبوعية يلقيها كل من الأعضاء في نادي المهاجرين في شارع المعرض، قاعة تتسع لمئتي شخص وكان العدد يحضر.

والطريق الثاني أن تتولى **الندوة** صحيفة أدبية، وقد عرضنا الأمر على ميشال أبو شهلا مؤسس **الجمهور** فوافق وأعطانا مجلته لمدة سنة. كان ذلك سنة ١٩٤٠.

كنتُ أكتب مقالة أسبوعية عنوانها **تحت المصباح الأزرق**، (كنت في الصف الثانوي الثاني، قبل البكالوريا بسنة). وتقاسمنا جميعنا تحرير المجلة، وأمضينا السنة، ثم اشتدّت بعدها أزمة الورق مع اشتداد الحرب العالمية الثانية.

س : ميشال أسمر في تلك الأيام؟

ج : كان يحضّر نفسه لعمل ندويّ كبير يتخطى **الاثني عشر**، إلى ما سمي في ما بعد **الندوة اللبنانية**. وكان في باطنه يريدها أن تكون ندوة لبنان، كل لبنان، بمختلف محافظاته وهيئاته. من هنا كان، أحيانًا، ينظّم محاضراته في غير محافظة واحدة.

س : وقتها في أي مرحلة دراسية كان؟

ج : هو أكبر منا سنًّا، كان أنهى دروسه الثانويّة، وفي أثناء الحرب تولّى وظيفة في دائرة المطبوعات.

س : من أيّ منطقة في لبنان ميشال أسمر؟

ج : من بلدة العربانيّة في المتن، ولم يكن يتصوَّر لبنان إلا كلًّا على صعيد المناطق والمجتمع.

س : أنهيتَ الثانويّة العامة، أين واصلتَ دراستك؟

ج : أكملتُ في الجامعة الأميركية. درستُ المنطق وعلم النفس والأدب العربي، وكنت أنوي السفر إلى جامعة پرنستون لتحصيل درجة دكتوره جامعية، لكن وقعت الحرب العالمية الثانية فتعطّلت معها أسباب السفر فلم أستطع أن أكمل.

س : أساتذتك في الجامعة؟

ج : شارل مالك وكمال يازجي وآخرون.

س : ماذا فعلت بعد تركك الجامعة الأميركية؟

ج : خاض والدي معترك السياسة في العام ١٩٣٧، وتولى الوزارة عام ١٩٤١ فتسلمتُ **لسان الحال**، بلا رغبة كثيرة في العمل الصحفي، كما سبق قوله.

س : لكنك مع **الاثني عشر** شاركتَ بفعالية في تحرير **الجمهور**، ما الفرق؟

ج : كانت **الجمهور** معنا مجلّة أدبية، بينما إدارة جريدة سياسيّة كبرى وتَحمُّلُ مسؤوليتها شأن آخر.

الندوة اللبنانية

س : حاولت **الندوة اللبنانية** منذ تأسيسها عام ١٩٤٦ أن تقوم بدور الضمير الثقافي للمجتمع اللبناني وللدولة أيضًا. نسأل عن العلاقة بين **الندوة** والسلطة؟

ج : كان ميشال أسمر يعتقد أن أكثر ما يفتقر إليه الحكم في لبنان تغطية فكرية موضوعية تشيع فيها مقولة **ديكارت**: «أنا أفكر إذن أنا موجود». وكان يرى أن الثقافة، بمعناها الكينوني الأشمل، ليست مجموعة مؤلّفات وحفلات فنّية وتظاهرات جماليّة فحسب، ولكنها، أي الثقافة، قبل هذا كله وبعد هذا كله، الطريقة الأساسية في الحياة.

س : علاقة **الندوة** بالحكم؟

ج : علاقة منضبطة (مهذّبة).

س : مع الرئيس الشيخ بشارة الخوري؟

ج : علاقة مهذّبة.

س : مع الرئيس كميل شمعون؟

ج : علاقة مهذّبة وأكثر انفتاحًا.

س : مع الرئيس اللواء الأمير فؤاد شهاب؟

ج : علاقة مهذَّبة ومنفتحة وملتزمة، اعتقادًا منّا أن الشهابية مقدّمة لنهج يتخطّى السياسة إلى الشؤون الأساسيّة الأخرى في الحياة، كالشأن الاجتماعي وما إلى ذلك.

س : مع الرئيس شارل حلو؟

ج : كان من محاضري **الندوة**، والعلاقة بالتالي كانت وثيقة.

س : مع الرئيس سليمان فرنجية؟

ج : خُفضتْ في عهده الاعتمادات المخصَّصة لـ**ـلندوة**، ومن هنا اضطرّت إلى الحدّ من نشاطها، علمًا أن حميد فرنجية كان من أصدقاء **الندوة**، وأن حبيب أبو شهلا تولّى رئاسة مجلس أمنائها ثم تلاه هنري فرعون. هكذا نرى أن **الندوة** كانت تعتمد أن تُرئّس مجلس أمنائها شخصية سياسية، تدليلًا من **الندوة** على أن السياسة في مفهومها الراقي يجب أن تكون في ضمنيّات الثقافة، فضلًا عن أن هذه الشخصيّات قوة معنويّة تضمن لـ**ـلندوة** الاعتمادات الماليّة اللازمة من الدولة.

س : مع الرئيس الياس سركيس؟

ج : كنتُ في أول عهده في لبنان، وحدث مهرجانُ تكريم ميخائيل نعيمة بمساعدة من الدولة.

س : ما صلتك بـ**ـالندوة اللبنانية** تحديدًا؟

ج : كنت عضوًا في **الاثني عشر** ثم المستشار الأدبي لِـ**لندوة اللبنانية** في كل أيامها، وكنت أنشر معظم مؤلفاتي في دار **الندوة اللبنانية** التي كانت تقتصر على نشر مؤلّفات قليلة: أعمال لميشال شيحا وورينه حبشي فضلًا عن مؤلّفاتي و**محاضرات الندوة**. ومعلوم أن مجموعة **محاضرات الندوة** نفدتْ طبعتها الأولى، وأَنها تنتظر من ينشرها في طبعة ثانية. وعندي، وعند سواي أيضًا، أن هذه المجموعة خلاصة ثقافيّة وافية لوجه من حياة لبنان، وخصوصًا لبنان المعاصر، في مختلف ميادين النشاط. وحرام أن تبقى **محاضرات الندوة** بعيدة عن متناول الباحثين وجمهور القراء الذين يطلبونها فلا يكادون يجدونها إلا في بعض المكتبات الجامعية والخاصة.

ومهمة المستشار الأدبي كما أرادها مؤسس **الندوة** كانت تتخطّى الاستشارة البسيطة إلى المشاركة، أحيانًا، في وضع برامج المحاضرات، وخصوصًا في الاطلاع على نصوص المحاضرات قبل نشرها في صيغتها النهائية في مجلة **محاضرات الندوة**.

س : توفّي ميشال أسمر سنة ١٩٨٢، **والندوة اللبنانية** من بعده تعاني الصعوبتين: غيابه ومأساة حرب لبنان المدمرة. كيف ترى إلى شخصية ميشال أسمر؟

ج : سمّيتُ **الندوة اللبنانية** طموحَ فرد وثقةَ مجموع،

وكتبتُ في كلمة لي على ميشال أسمر أنه «وعى الشأن الوطني على تنوّع أبعاده وتعدّد فئاته واصطراع قضاياه، فأدرك ما في لبنان من مرتجيات وما عليه من أخطار. وكنّا، في خلال ذلك، نوافقه تارة وتارة نخالفه، لكن، لم يسعنا إلا أن نلزّمه في أغلب الأحوال. حتى إذا اجتاحنا الهول العظيم [...] وجم ميشال أسمر أول الساعة [...] ثم هبَّ فجأة يلملم طاقات من تحت أنقاض.

آية عمره؟ عناد حتى الجنون، الجنون بـ**الندوة اللبنانية** وبمحاضرات **الندوة**، وبمجلّتها وشبْهِ دار نشرها وبعلاقاتها وصداقاتها في مشارق الإنسان وفي مغاربه، وسط مشاريع ندوّية ابتدعها عمقُ نظره فلم نستحقّها فغُيِّبتْ. وما عمله في اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع، تعزيزًا للحوار بين ألسنة الشعوب، إلا وجهٌ من عناده. إنه عناد أبى التقسيم في تاريخه وجغرافيته وسائر أشيائه فأراد الإنسان واحدًا في كلٍّ وأراد لبنان كُلاًّ في واحد.

س : هناك مثقّفون وعاملون في الحقل الثقافي قاربتَهم أو قاربوك. نرغب في رؤية أو في شيء من الرؤيا عن هؤلاء. ونبدأ من رينه حبشي العابر المهمّ في الحياة الثقافية اللبنانية.

ج : عرفتُ رينه حبشي أول ما عرفتُه في **الندوة اللبنانية** وكان قد وصل من مصر في أوائل الخمسينيّات، فوجدت أن

الرجل من العيار الثقيل وأنه محرّض ثقافيّ، كما سماه أنسي الحاج، فكان يشارك في تنشيط برامج الندوة، ويشارك، على الأخص، في محاضراتها. فالفيلسوف رينه حبشي محاضر من الطبقة العالية، يعرف كيف يتصدّى لموضوعه تصدّيًا فلسفيًّا عميقًا ولكنه غير جافّ، وهذه من أبرز خصائص حبشي في نصوصه الفلسفيّة، مع العلم أن هذا الأسلوب في المعالجة الفلسفيّة للموضوع تحفّ به الأخطار. بمعنى أنه إذا غلا صاحبه في البعد عن الصرامة الفلسفيّة فقد يقع في ألدّ أعداء الفلسفة، وهو النّفَس الغنائي.

قلائل في الفلسفة من استطاعوا أن ينجوا من هذه الخطيئة المميتة. نيتشه استطاع في معظم مؤلفاته أن يكون فلسفيّ النهج في غير ما جفاف، وكيركچارد، على ما بينه وبين نيتشه من عوالم تناقض، استطاع، هو أيضًا، أن يكون في نجوة من هذا الجفاف.

ولست أَغلو إذا قلت إن رينه حبشي، هو أيضًا، استطاع هذا الأمر. وأرجّح أن وراء هذه الاستطاعة أنّ حبشي موسيقيّ عن موهبة، وأنه من أبرع العازفين بالپيانو. ولو لم يكن فيلسوفًا لكان عازفًا شهيرًا.

س : ميشال شيحا؟

ج : عرفتُه وأنا ابن ثماني سنوات. كان قبل زواجه يسكن

في الطابق الأول من بيتنا مع شقيقته وزوج شقيقته الشيخ بشارة الخوري. كنت صغيرًا، فلما وعيتُ صرتُ أقرأ مقالاته في **لوجور**، بعد ذلك أطلّ في محاضراته في **الندوة اللبنانية** وأنا أتابعه عن بعد متابعة القارئ للنصّ، ولكن، أتجنّب أن أتصل به لئلّا أستأثر بوقته الثمين وكان في سنّ والدي. لكن لما توفّي، رأيتُ أن الوقت قد حان لكي أقول فيه ما أريد قوله، فوضعتُ كتابي **صوت الغائب** تعبيرًا عن فكر ميشال شيحا في مختلف وجوه نشاطه الثقافي، من السياسة الداخلية إلى السياسة الدوليّة، إلى الفنون العالية وفي طليعتها الشعر والأدب إجمالًا، وأخيرًا لا آخرًا إلى موضوع فلسطين، وقد وعى أبعاد الصهيونية على حقيقتها وعيًا أثبتت الأيام صحّته.

س : هنري فرعون؟

ج : تريد هنري فرعون في **الندوة اللبنانية** لا هنري فرعون في لبنان، لأن الرجل من الآباء المؤسّسين في تاريخ لبنان الحديث.

في **الندوة**، كان يرئس اجتماع مجلس أمنائها في قصره الشهير. وكان يبدي رأيه في جرأة وصراحة، وكثيرًا ما كان يتصل بمؤسّس **الندوة** ويقول له: «أنا واصل بعد ربع ساعة بحبّ أطّلع على برنامج الفصل القادم، خصوصًا على الأسماء.»

كان يهمّ فرعون أن تكون الأسماء من الفئات الإيجابية البنّاءة، وكان يستصعب الموافقة على ما يثير، لاعتقاده أن الإثارة الثقافيّة أو ما سُمّي في ما بعد «الثورات الثقافيّة» تهدم أكثر مما تبني. وعلى هذا الأساس كانت علاقة فرعون بـ**الندوة**.

س : كميل أبوصوّان؟

ج : في رأيي أن كميل أبوصوّان وُلد سفيرًا للبنان قبل تعيينه سفيرًا في الأونيسكو بربع قرن على الأقل. إنه سفير فوق العادة يتخطّى المراسم والتشريفات الخارجيّة، مع مراعاته لأصولها، إلى صميم الشأن الثقافيّ.

تعاطى العمل الأدبي أول الأمر في مجلته الدورية Les Cahiers de l'Est التي استمرّ يصدرها أعوامًا قبل انتقاله إلى باريس للمرة الأولى أوائل عهد الأونيسكو، أيام أمينها العامّ ألدوس هكسلي، فكان أبوصوّان مستشاره الأول وصديقه.

ثم إن لكميل أبوصوّان ناحية يتفرّد بها، وهي علاقاته العامّة والخاصّة في مختلف العواصم الكبرى، فهو يستطيع أن يجمع مثلًا في أقل من ٢٤ ساعة ٢٤ شخصية من أبرز مثقّفي باريس يخاطبهم بكل بساطة مخاطبة الصديق القديم العارف بشؤونهم.

وهناك ناحية أخرى تفرَّدَ أيضًا بها، وهي إصداره

المجموعات الرائعة من كتب مهرجانات بعلبك الدولية **والفن الإسلامي والإيقونات** ثم مجموعة **لبنان والكتاب** وكتاب **الهندسة اللبنانية من القرن الخامس عشر إلى القرن التاسع عشر**. وإلى ذلك كله، هناك مكتبة أبوصوّان وثقافته الموسوعية، وكذلك نثره، فقد بقي بضع سنوات ينشر في جريدة **الأوريان** مقالًا افتتاحيًا كل أسبوع يعالج فيه السياسة الدوليّة بمنظار الكاتب المثقّف، وكان لهذه المقالات أصداؤها في وزارات الخارجيّة فضلًا عن السفارات[1]. ولا ننسى ترجمته **نبي** جبران إلى الفرنسوية؛ فقد طُبع منها إلى اليوم أكثر من نصف مليون نسخة في ٢٧ طبعة.

س : أمين آل ناصر الدين؟

ج : علاقتي بأمين آل ناصر الدين علاقة مراسلة. لم أعرفه معرفة شخصيّة، وكان يكبرني بنحو نصف قرن على الأقل. كنت أكتب إليه أستفتيه في بعض الدقائق اللغوية فكان يجيبني ويشجعني على مضاعفة التسآل. وفي رأيي أنه من أكثر اللغويّين حرصًا على الفصحى، وقد رأيت أن أفيَ دَيْنه الأدبي برسالة وضعتُها عنه بعد وفاته عنوانها **وصية في كتاب**، درستُ فيها

---

(١) نُشرتْ، إذ س و ج وإلخ تحت الطبع، مختاراتٌ لافتتاحيّات **كميل أبوصوّان**. جمعها وكتب مقدّمتها **موريس صليبا**. عنوان الكتاب:

Camille Aboussouan: Autour du Liban.

مؤلّفه **دقائق العربية**. وممّا كتبتُ في المقدمة: «في ذمتي هذه الرسالة، وفاء لأمين آل ناصر الدين، وتنويهًا بفضله، وترحّمًا عليه. ويا أسفي أن لم يضمّني إليه مجلس ولا لقاء، على الجوار الموصول، عندنا، بين المدينة وبعض الجبل. فلقد اعتزل هو أعوامًا في كفرمتى، وبها اكتهل وشاخ لم يكد يجاوز حدّ بيته. ولطالما هممتُ بزيارته ثم أرجأتُها، إلى أن فوجئت يومًا والأيدي تُنفض من ترابه. ذلك الأسف يتجدّد شعوري به كلما عدتُ إلى هاتيك الرقع التي كان يختصّني بها حينًا بعد حين، إذ كنتُ أستفتيه في بعض مسائل الضاد.

فالأمين لغوي أولًا. ولقد بلغتْ به الغيرة على الفصحى إلى الهيام بها والتقديس لها. فما زال يتقصّى دقائقها، سحابة العمر الطويل، حتى بدا كأنه المعجم الحي!

قيل إن اللغويين لكمثل الجوامد، وربّما كان أكثرهم كذلك، ولكن لا غنية للأدب عنهم إذا أريدت لأداته الصحّة والضبط والتهذيب. ثم إن البحث في موضوعهم شائك، والكلام عليهم جافّ لا يستسغيه إلا أولو الدراية والتحقيق.

وإنما نحن، هنا، في حضرة إمام لغوي لا يكاد يكون له عديل في هذا الزمان، بعدما غلبتِ العجلة على معظم أسباب الحياة. كما أنه لم يُذكَر، في تاريخ العربيّة، إلا الأقلّون ممن زاولوها على أنها علم برأسه. ومن هؤلاء: سيبويه والخليل وابن

مالك والأصمعي والثعالبي وإبرهيم اليازجيّ وعبد الله البستانيّ وأمين آل ناصر الدين.»

س : أنطون غطاس كرم صاحب **كتاب عبد الله**؟

ج : **كتاب عبد الله** سيرة أنطون غطاس كرم الفكرية، والأدبية على الخصوص، والكتابية على الأخص. ذلك أنه كان يعاني الشأن الكتابي لفظة لفظة وعبارة عبارة، ثم يخرج من ذلك كله إلى صميم نفسه، وكأنما صميم نفسه هو برأسه معاناة لغويّة.

لم يكن عنده القلق الماورائي، ولا كان عنده الهمّ الوجودي الملحّ، ولكن همّه الأول في **كتاب عبد الله** هو الكتاب وعبد الله، وكلاهما كل لا ينفصل عن الآخر.

س : جوزف زعرور؟

ج : كان له دور معيَّن ونشاط خاص في **الندوة اللبنانية**.

كان عمله هو أن ينظِّم علاقات **الندوة** بالدولة في العاصمة وفي سائر المحافظات على أساس علميّ وفقًا لبرنامج مدروس. وكان، إلى ذلك، ينقد برامج **الندوة** ـ محاضراتها، حلقاتها الدراسيّة، منشوراتها ـ قبل وضعها موضع التنفيذ. وكان بالتالي يشارك في اقتراح الأسس للسياسة الثقافيّة التي تنتهجها **الندوة**. ولطالما شدّد على أن التربية، بمعناها الوطنيّ والاجتماعيّ والثقافيّ، يجب أن تكون لها الأفضليّة في هذا

المجال، فنؤسّس الشأن الثقافي، الذي هو هدف **الندوة** النهائيّ، على معطيات تربويّة اجتماعيّة، لأن لبنان ليس سويسرة الشرق، كما يقول كثيرون ممّن يدلّ قولهم هذا على أنهم لا يعرفون لبنان ولا سويسرة معرفة صحيحة. وكان يشدّد على أن لبنان هو في مراحل النموّ، أي أنه، في الأكثر، ينتمي إلى العالم الثالث. ولطالما ردّد زعرور يقول: «يجب أن نواجه حقيقةَ أمرنا كما هي عليه في الواقع لا في خيال المرتجيات.» وقد انتهى ميشال أسمر إلى الموافقة على موقف زعرور هذا، ولكن بعد سنوات، لا على الفور. ودلّت أحداث ١٩٧٥ وما بعدها على صحة نظرات زعرور من هذا القبيل.

س : وديانا تقي الدين؟

ج : كانت ديانا هي المستشارة الفنيّة، أو الموسيقيّة في الأصحّ، لـ**لندوة اللبنانية**، إذ إن ميشال أسمر كان قد وضع، في جملة ما وضع من مشاريع، مسودة نشاط فنّيّ وموسيقيّ على الأخصّ. لكن قلّة الموارد الماليّة عطّلت هذا المشروع كما عطّلت أمثاله، غير أنها لم تعطّل ديانا عن إبداء الرأي في برامج **الندوة** ومحاضراتها وعن القيام بخدمات واتصالات ندوية متعدّدة.

س : في **الندوة اللبنانية** وخارجها كانت حوارات حول الإسلام والمسيحيّة في لبنان. كيف تنظر إلى هذه المسألة؟

ج : الإسلام والمسيحيّة في لبنان قرينان مكتوب لهما أن يكونا معًا أو يموتا معًا. هذه حقيقة بديهيّة كلّما تخطّيناها ذقنا الموت فعلًا لا قولًا.

أقول ذلك وأنا أعي الصعوبات التاريخيّة التي وقفت في وجه هذه الحياة المشتركة. وعندي أن المسيحيّة والإسلام كانا على أحسن ما يمكن أن يكونا فيه يوم المجتمع اللبناني مجتمع نخبة (والنُخبة هنا نخبة شعبيّة واسعة لا نخبة أرستقراطيّة ضيّقة).

كان سكّان لبنان قليلًا عديدهم، وبالتالي كانت المشكلات والقضايا التي تواجه الحياة المشتركة بيننا محصورة بالنسبة إلى قلّة عدد السكان.فلما أخذت المجتمعات اللبنانيّة تزداد والأعداد تتكاثر انتقلت الكلمة من تلك النخبة إلى السواد العامّ.

وهنا لا بد من أن نعترف بأن تلك النخبة المثاليّة لم تستطع أو لم تعرف، ولا أقول لم تُرد، أن توجّه هذا التفجر السكّانيّ توجيهًا إيجابيًا يضمن أن لا يفلت الزمام كلما حدثت هزّة سياسيّة أو غير سياسيّة عندنا أو عند بعض إخواننا.

التوجيه الإيجابي الذي قصّرتْ فيه النخبة شيء معروف، لكن أن نعرف الشيء لا يكفي إن لم نطبّقه في المجال الخاصّ والمجال العامّ. هذا التوجيه قوامه أن نتخطّى الطائفيّة السياسيّة وغير السياسيّة إلى جوهر القيم الروحيّة التي تُغني

الإنسان وتوجّه الإيمان، وبالنتيجة تصون الكيان أضعاف ما يصونه السلاح.

لبنان برجاء مسيحيته وقدَر إسلامه أرضُ الإنسان إذا وعى نفسه وحقيقته، ولكن هيهات...

س : أنت ابن بيروت في عصرها الذهبي، كيف تنظر إليها؟

ج : بيروت، كما عرفناها قبل أهوال ١٩٧٥، ربّما جاز لنا أن نعيد تاريخها إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر. فقد ابتدأت بيروت تنمو وتتسع وتزدهر منذ تلك الحقبة، فما زالت في اطّراد نموّ وانفتاح إلى أن بلغت الذروة التي وصلتْ إليها في الثلث الثاني من القرن العشرين.

ولو عدنا إلى التاريخ القديم لوجدنا أن طرابلس، مثلاً، كانت أهمّ من بيروت، ولكن أحوال المدن كأحوال الدول تعلو وتهبط لأسباب متعددة أهمّها، في رأيي، السياسة والتجارة بالنسبة إلى بيروت.

أما أن نقول إن بيروت كانت حاضرة ثقافيّة عالميّة فهذا قول مبالغ فيه، وإنما يجوز القول، بكل تواضع، إن بيروت بين ١٨٧٠ و١٩٧٥ كانت بالنسبة إلى عواصم سائر الدول العربيّة المدينة الأمّ أو شبه الأمّ. وربّما كان مردّ ذلك إلى أن بيروت اتّسمت بجو من الحريّة، على مستوى الأفراد والجماعات،

استطاعت معه أن تفتح قلبها وعقلها لكلّ من يريد أن يحيا فيها. ذلك أن بيروت حياةٌ برأسها، حياة متنوعة الفصول، غريبة الأطوار، تعبد الله حينًا وتناجي الشيطان حينًا آخر في شيء من التصوّف هو مزيج من الإيمان والكفر بكثير من القيَم.

وأعتقد أن هذا الجوّ الذي بلغ أوجهُ في الستينيّات قد ارتحل عن أرضنا إلى أجل غير معلوم. والغريب أنه لم ينتقل إلى عاصمة عربية أخرى، فكأنه قد تبخَّر أو قُضي عليه في جملة الأشياء الكثيرة التي قُضي عليها في الحرب القذرة التي مُني بها لبنان.

الفكر ووعاؤه

يصف خليل رامز سركيس جيله في كتاب **من لا شيء** فيقول: «...وُلدنا ودخان المعارك البعيدة يبعث في صدورنا مثل سعال الموت البطيء. فلما شببنا وبدأنا نجوس خلال الحياة، مادت الأرض بنا من جديد، فورثنا من عصرنا المضطرب شعورًا بعدم الاستقرار هو إلى الاستهتار أقرب منه إلى السآمة الرومنطيقيّة، وتجمّعتْ فينا خلاصة الحالات المعقَّدة، وجرت في عروقنا عصارة اللذات المحرَّمة.»

هذا الإيقاع اليائس ما لبث أن أثمر في أوروبة الوجوديّة بمذاهبها المتعددة التي وصلت إلى بلادنا. ويبدو أن شيئًا من أرستقراطيّة ومحافَظة عَصَمَ خليل رامز سركيس من هذه

الموجة. إن تنشئته الكلاسيكية وهدوءه المبكر أفضيا به إلى رؤية تعتني بالثوابت وترى إلى المتغيرات كأعراض ليس أكثر. وحين بدأ خليل رامز سركيسٍ النشر في الخمسينيّات، كان الحضور العربي للوجوديّة في أوجه مع ترجمات أعمال فكرية وأدبية لجان پول سارتر وسيمون دوبوڤوار وغيرهما. ضربٌ من الوجوديّة بعيد عن إيمانيّة سركيس، ونوع من الأدب يركّز على تفاصيل تبدو، في كتابة سركيس، أعراضًا لا جواهر.

وإذا تجاوزنا **صوت الغائب** كتاب سركيس عن ميشال شيحا، فإن كتابه الثاني **من لا شيء** حدّد العلامة الأساس لفكره وأدبه: الإنسان، ما يشدّه إلى دون وما يسمو به إلى العلاء استجابة لنداء الله.

يلامس خليلْ رامز سركيس معضلة الإنسان وجودًا ومصيرًا، داغمًا الانطباع والبحث مع غلبة واضحة لملامح الأول، فهو على ما قال حسن صعب «مقاربته أوغسطينيّة غزّاليّة أكثر مما هي توماثيّة رشْديّة.»

لا يبحث خليل رامز سركيس موضوعه في منهج الدارسين المقمّشين بقدر ما يدوّن بحساسيّة ملفتة إيقاع الموضوع في دخيلته كمفكر، فتبدو المعالجة أشبه بتجربة ذاتيّة من حيث هي تدور حول موضوع وتهتمّ بحدوده وانفتاحاته.

وفي مجال الإنسان أيضًا كتب خليل رامز سركيس ثلاثيّة

أيام السماء وأرضنا الجديدة، و**مصير** عاقدًا لقاء بين الإيمان والمعرفة، اللذين يبدوان نقيضين في الكلام اليوميّ، لاحظًا البُعد التاريخي للإنسان ومداه في الإيمان وعيًا فمصيرًا.

وقد أغنى التراث العربيّ في بُعده المسيحيّ، وهنا المسيحيّة في كلامها العربي لا تنحصر في لاهوتها بل تهتم بمعضلة الإنسان عامة. ويرى أدونيس في **مصير** خليل رامز سركيس هواجس أربعة: الكوني والإيماني والشخصاني والهاجس الجامع باعتبار الفنّ فعْل تجاوز.

والشخصانية عند خليل رامز سركيس درسها إميل المعلوف من خلال **جعيتا: محاولة ذات صوتين**، كتابة أسطورية تؤشّر على نقل الأنا من جحيم العزلة إلى نعيم الجماعة، حيث تشمر الأنا هدايتها ويلتحق الإنسان بمسيرة الشخص إلى مثاله الأعلى، يتضامن والآخرين تضامن قطرات الماء في النهر الجاري.

ومياه **جعيتا** عند خليل رامز سركيس رمز للتسامي نحو الكمال الروحيّ، صعيد مختلف عن مياه هيراقليطس في نهره الذي يرمز إلى سيل الزمن، وآليته الضرورية.

لا تنفصل الكلمة عن فعلها في كتابات خليل رامز سركيس. كلمته تتجوهر ومعناها، حتى نقول إنه من الأسلوبيين. أسلوبه نظام يقدّم نظامًا وليس قناعًا يحجب اللانظام.

لا ندّعي في ما سبق من كلامنا مقاربة لفكر خليل رامز سركيس، بل هي إشارات وعناوين، ومعها لا بدّ من أسئلة نطرحها، متوكّئين على الأجوبة كمزيد من الإشارات.

س : هناك مدرسة إنشائيّة لبنانيّة تلعب بالألفاظ إلى حدّ عدم الحاجة إلى المعاني؟

ج : تحت اللفظة، وقبل اللفظة وأمامها، غاية تتخطى اللفظة إلى أبعاد الكلمة بمعناها الإنساني الأشمل (Logos).

فإذا استطاع النص أن يتحرَّر من القيود اللفظيّة لكي يبعد في العوالم التي يتخذ الألفاظ سبيلًا إليها، فهو إذن نص مبدِع حرٌّ كريمُ الأصل والفروع.

الكلمة، مثل الإنسان، سيرةُ روح وجسد متفاعلين في مغامرة كيان حيّ، متضامن الوسائل والغايات.

س : كتابة الفكر تكفيها، كما هو شائع، لغة مقتصدة ودقيقة. هل، في رأيك، تلزمها لغة جماليّة؟

ج : الكتابة، فكرًا كانت أو أدبًا صرفًا، لا ينفصل معناها عن شكلها، وإلا وقع النصّ المكتوب في علة الانفصام.

اللغة الجماليّة ليست في ذاتها كيانًا مستقلًا إلا إذا أريد بها أن تكون نوعًا من الترف شبه الفارغ، وهذا ما يأباه القلم الأصيل.

س : ما حدود اللاهوت والدنيويّ في تجاربك الكتابية التي تلامس موضوع الإيمان؟

ج : أحاول جهدي أن لا أكون ذا عقلية ساميّة، وخصوصًا حين أقارب الموضوع، وأعني بالعقلية الساميّة الدين والدنيا معًا.

يصعب عليّ أن أتقلّب في القضايا والمسائل التي أعانيها في الشأن اللاهوتيّ ما لم أتحرّر من كل ما ليس إيّاه. ومع ذلك أبقى في حدود اليوميّ العابر، إذ الإيمان عندي فعلُ الإيمان لا قوله فحسب، وإذ التجربة الحيّة هي في أساس هذا الموقف.

س : ماذا كان يعني لك إيمانويل مونييه؟

ج : كان يعني لي الإيحاء الشخصاني بمعناه العامّ المطلق، أي أنه كان مدخلًا إلى الشخصانيّة المحلّيّة التي ينبغي أن يتوخّاها مَن تَفصله عن مونييه عوالم زمانيّة ومكانيّة واختلاف أحوال وأحداث.

رأيتُ الشخصانيّة في مغارة جعيتا، في أرض لبنان، ومن خلال معاناتي لمعنى المياه معاناة شرقية.

س : خليل رامز سركيس كيف يرى إلى مصير الإنسان اليوم فردًا أو جماعة؟

ج : تحضرني كلمة لألبير كامو كثيرًا ما ردّدها في كتاباته وإذاعاته، وخلاصتها أن الإنسان اليوم يحيا وحده، وإن أحاط نفسه بمختلف أشكال التواصل.

هذه الحقيقة يعانيها كل واحد منا في عالمه الذاتيّ وعالمه

الآخَريّ. لقد وصل الإنسان إلى القمر، وقد يصل يومًا ما إلى ما هو أبعد من القمر، لكن، مع ذلك، يبقى الإنسان يشعر أنه لم يصل بعد إلى دخيلة نفسه وصولًا واعيًا مسؤولًا. وهذا ما جعله يتقلّب على آفات الوحدة وأزمات الوحشة، وكأنه في قلقه منفيّ عن نفسه وعن آخره وعن غيره في آن معًا.

هذا القول قد ينطبق على معظم ما في الإنسان في كل أرض وعهد. ومع ذلك فإن الإنسان، إنساننا وإنسان غيرنا، لا يفتأ يحاول أن يتخطّى هذه القيود التي تحبسه عن أمّ الغايات: الكينونة والمصير.

وأغلب الظن أن جدليّة الكينونة والمصير هي مِن أقدم الجدليات وأحدثهنّ.

محمد علي فرحات

روح الكيان اللبناني وثقافته إلى أين؟ اللامستوى هو الخطر

محمد علي فرحات

بعد عشرين سنة من حروب طويلة وسلم قصير، يواجه لبنان أحد مجهولين: السلام الإقليمي متى [أو إذا] وقّعتْ سورية معاهدتها مع إسرائيل، أو حال لا حرب ولا سلم تستنزف ما بقي من روح المجتمع اللبنانيّ. كيف تحدّدون المقوّمات الثقافيّة والحضاريّة للكيان اللبنانيّ بعد امتحان التجارب؟ ما الثابت وما المتغيّر في هذه المقوّمات؟ ما العناصر التي تحدّد وجود ثقافة الكيان؟ وما السبيل إلى استمرار ما يُعرَف بروح المجتمع اللبنانيّ مع الضواغط الإقليمية المتنوعة، ومع تراجع الإنتاج وتنامي الاستهلاك على الصعيد الإنسانيّ؟

جريدة **الحياة**، لندن، في ٥ آذار ١٩٩٦، (سؤال موجّه إلى مثقّفين لبنانيّين).

جواب خليل رامز سركيس

لبنان اليوم، حيال التحدّيات السلميّة وتأثيرها في مستقبل تاريخه، ربّما جاز لي أن أختصر «مقوّماته الثقافيّة والحضاريّة» بكلمة رئيسة واحدة تَلزم عنها بضعُ مَقولات. هذه الكلمة هي المستوى، المستوى في الخاصّ وفي العامّ. اللامستوى عدوُّنا الألدّ.

عن المستوى تَلزم الحرّية في عصمة نظامٍ ديمقراطيّ مفتقَد يصون حرمة الإنسان بحقوقه وبواجباته، ويتولّى مهمّة الكيان في عمقِ مناطقه ومعنى حدوده توليًا ذكيًّا مسؤولًا: الإنسان شخصيٌّ فردٍ وجماعةٍ إلى وحدة جماعات في وطنٍ شعبٍ وتراثِ أرضٍ وسماء؛ والكيان منفتحًا على تحاور العوالم في تقارب الأباعد وشبهِ تفاهم الأضداد، وسط صراعِ الوجود شرقًا وغربًا إلى جنوب وشمال.

هنا تقتضي المصارحة الوطنيّة أن نَذكر، نحن اللبنانيّين، أن المشيئة الدوليّة قد تَغيَّر موقفُها بإزاء بلدنا من بَعْد مراحل الحلّ السلميّ لنزاع العرب وإسرائيل. فما كان يُحسب ثوابت لبنانيّة لم يبقَ ثابتًا جُلُّه، بل ذهبتْ به الثوريّات المعاصرة التي عصفتْ بالشرقين الأدنى والأوسط. لبنانُ استقلالَي ١٩٢٠ و١٩٤٣ طُويتْ صفحتُه في محفوظات الملفّات الدپلوماسيّة العالميّة في واشنطن وپاريس ولندن وموسكو وسواها. الدول ذات الشأن

والكلمة ـ أكاد أستثني الڤاتيكان ـ تعنيها مصالحها في لبنان وفي العالم العربيّ عامة أضعاف ما يعنيها لبنان نفسه وإن لم تفتأ تكرّر تمنّياتها لسيادته ولحدوده ولبعض مميّزاته. حروب ١٩٤٨ ـ ١٩٧٥ ـ ١٩٩٠ فما بَعْد، من فلسطين ولبنان إلى الكويت، غلبتْ لبنان كما عرفناه فأحببناه. أخشى أن سلام هذه الحروب سيتغلّب على لبنان، وخصوصاً أن المشيئة الدوليّة السائدة تتغافل عن حقيقة لبنان الجغرافيّة والتاريخيّة، تريده بعضًا نسبيًّا تابعًا لكلّ إقليميّ موزِّع النفوذ من الخليج إلى المحيطَين، في ما يعرّض هويّتنا القوميّة لأخطار التفتُّت والضياع.

ما ابتدأتُ بالمستوى فتدرّجتُ إلى الحريّة، مرورًا بالثوابت والمتحولات، إلا محاولةَ أن أنفذ، من خلال الحرّية، إلى القضيّة الاجتماعيّة في لبنان. وذلك بأن مَقولة الحريّة ومشتقاتها، من فحوى الكرامة إلى محتوى الرغيف، إذ الحريّة بلا خبزٍ جوعٌ وإذ الخبز بلا حريّة مجاعة، ـ ذلك بأن مقولة الحريّة ومشتقّاتها تَلزمُ عنها قضيّتنا الاجتماعيّة وما منها وما إليها. أكثريّة مجتمع لبنان ـ لبنان المواهب السائبة ولا سيّما منذ ١٩٧٥ ـ فقرُ معنًى وبؤسُ مادّة، على ما بلبنان من رؤوس أموال يتحكّم في سوادها محدَثو نعمة ويد، وعلى ما يخطَّط للبنان من مشروعات يحتكر معظَمَها بعضُ أثرياء الحرب والنفوذ المستعار، مع هوس الظهور أشكالاً وأمثالاً. أما البيوتات العريقة، أو ما بقي منها، فإنها ما تزال تثمّر مدّخَراتها وفقًا

لأصول التعامل. وأما الطبقة المتوسّطة فقد أمست أقلّية مهدَّمة مهجورة كأنها الوجه البشري لخرائب الأسواق في قلب بيروت، بيروت الروح والجسد. إن لبنان، محرومًا طبقته المتوسّطة، ليس لبنان، ولكنّما هو، على العموم، بؤرة عللٍ وأخطار في الداخل ومن الخارج في جاهليّةٍ تخلفٌ وأزماتِ استسلام. وهكذا بات لبنان مجتمعاتٍ متغايرة تعوزها لزوميّاتُ التضامن في أكثر الميادين.

بالتضامن الاجتماعيّ المنشود أكون أنا ــ مثلًا ــ إلى الإنسان الآخَر، ونكون، نحن الاثنين معًا، إلى إنسانٍ غيرنا في أخوّة حلفٍ جماعيٍّ متجاوبِ الأركان مع تعدّد الفئات. حِلفُنا، هذا، حبٌّ لا حرب. (لو نستطيع أن نفقد بعض ذاكراتنا الحربية نغلِّب إيجابيّات السلام). لبنان، طوائفَ على مَواقف متضاربة في لبنان الطائف، لو تنجّيه من نفسه ومن آخَره ومن غيره سلطةٌ موحَّدة تعرف كيف تحكمه وتسوسه تعترفُ بواقعِ تعدّده وبما فوق واقعه من غنى معطيات في ممكناتِ رقيّ وطموح. سلطة لا تَنكَرُ ولا تَقسرُ طبيعة هذا الواقع، بل تَفهمُه فتَصهرهُ في جامعٍ وطنيّ سيّد مشترَك عدلًا وتساويًا إلى منجَزات، في ما يتخطّى ظواهر المنمّق المعسول إلى بواطن المعقول المحقّق. جدلية التعدّد، بما لها وبما عليها، لا محيد عنها في لبنان. محنة المحن محاولةُ سبك الوطن في قالب منفردٍ، جامدٍ، شديدِ الأسْر. لبنان، طوْلَ حركيّةِ تاريخه،

حيوياتُ «توتّر دائم. المهم أن لا نقطع الوتر»، على حسب مأثورة لجورج خضر.

ذلك كلّه تبعُ تنشئةٍ وطنية تحتضن الإنسان من قبْل أن يولد، تبدأ، على الأقلّ، بأبويه صانعَي تاريخه وبَشريّةِ جغرافياه. حتى إذا تكوَّنَ الجنين في سرِّ أبيه وأحشاء أمّه، فوُلدَ الطفل فنما، ثم فتي فشبَّ فرَشدَ فاستقلّ، انطلق في مدى غده المؤسَّس المسؤول يواجه الحياة نهارها وليلها وما بين بين.

عن ذلك بأجمعه وعن سواه، في ما إخال، تلزَم الثقافة. إنها، عندي، أُمُّ المسلَّمات. إنها الحيويّة الأولى والأخيرة، من رأس الهرم إلى قواعد الأساس، في شموليّات روحٍ وجسدٍ مؤتلفَي الجوهر والوجود. إن الثقافة، مَنطقَ حياةٍ في طريقةِ عيشٍ، هي، في إجمال ما هي عليه، أن أَفهم ثم أَقبل أو أَرفض. وليست الثقافة أن أَقبل أو أَرفض قبْل أن أَفهم.

لبنان الإنسان بَشرًا قبْل حجَر، لبنان المستوى الحرّ، لبنان السيِّد (؟)، لبنان الواحد، المتعدّد في تنوّعِ حضارة أسبابًا ونتائج ـ لبنان، هذا، سيرةُ موافَقة على مخالَفة بغيرِ تصدّع ولا انكسار، كما طالما ذكرتُ.

لكنْ متى لبنان، لبنان الأصالة التي بدونها يتعذَّر على لبنان أن يعاصر المستقبل؟

جوزف زعرور

خليل رامز سركيس:
«أنا والنصّ كما خلقتّنا يا ربّ.»

جوزف زعرور يحاور خليل رامز سركيس والمناسبة «رباعيّة» الكتب الصادرة حديثًا عن دار الجديد في بيروت. لكن الحوار يذهب إلى الأبعد فيتحدّث عن لبنان الذي يرمز، في رأي صاحب مصير، إلى الباب الضيق، مؤكدًا أنه يحاول أن يكون لبنانيًا يستحقّ لبنان، ومخلوقًا يستحقّ الإنسان. ويغوص سركيس على جذوره الفلسفيّة قائلًا إنها تحاول أن تجد لنفسها حلًا هو بنفسه أزمة جديدة، متوقفًا عند جدلية الماء والتراب والنار والهواء، معتبرًا أن العناصر الأربعة تتناول الحياة وتشيع فيها معنى التضامن وتُحذّرها من أخطار الصراع بينها، ذلك أن شرط العناصر أن تبقى في تعدّدها وتناقضها ذريعة للوحدة في تنوعها. ولا ينسى الحوار أن يتطرق إلى علاقة سركيس بـ الندوة اللبنانية ومؤسّسها ميشال أسمر لافتًا إلى أن الندوة لم تكن الدولة بل

جريدة النهار، الملحق، بيروت ٨ تشرين الثاني ١٩٩٧.

كانت تقترح عليها، وأن سلاح الندوة كان الكلمة، والدولة تسمع الكلمة حينًا ولا تسمعها أحيانًا، منتهيًا إلى أسرار الكتابة والترجمة وطقوسهما، في ما يمكن اعتباره وثيقة معاصرة لأحد رموز الكتابة النثرية اللبنانية.

س : خليل رامز سركيس من أنت؟

ج : أشكر لك هذه الثقة التي تحسب أنّني أعرف من أنا. لو كنت أدري من أنا لكنت توقّفت عن الكتابة وكأنني توقّفت عن الحياة. «من أنا؟» محاولة بدأتْ قبل ما وُلدتُ بأجيال، ولسوف تبقى مطروحةً من بعدي زمنًا يعلم الله وحده متى ينتهي. «من أنا؟» قضيّة تاريخيّة جغرافيّة وراثيّة من غير خضوع لموات الماضي. قضيّة غدَويّة الأبعاد تضْرِب في عمق الحاضر الذي يصعب أن يُفصَل عن الماضي وعن المستقبل. هذه الديمومة الثلاثيّة الاتجاه هي بعضُ ما يُفَسّر من أنا.

أمّا إذا شئتَ أن ننتقل من خصوصيّات العامّ إلى عموميّات الخاصّ، فقد يجوز لي أن أقول إنّني أحاول أن أكون لبنانيًّا يستحقّ لبنان. وأحاول أن أكون مخلوقًا يستحقّ معنى الإنسان. أن يستحقّ أحدُنا لبنان ليس أمرًا هيّنًا. لبنان رمز للباب الضيّق، مع كلّ ما في تراثه من انفتاح على مشارق الحياة ومغاربها، ومع كلّ ما في تاريخه من جروح لا تكاد تندمل حتى تنزف من جديد. فكأنّ قَدر لبنان ـ شأن كثير من البلدان المعرّضة

للأخطار ـ يأبى إلّا أن يمرّ بما يجعل منه كبش المحرقة وخصوصًا في المراحل العصيبة التي تعانيها المنطقة الجغرافيّة التي ينتمي إليها لبنان.

أن يستحقّ مخلوق أن يكون إنسانًا تلك تبعاتٌ موصولة بأعراق الحضارة والتمدّن، فضلًا عن معطيات الإيمان.

الحضارة هي بنفسها تبعة على الإنسان. والتمدّنُ، سليل الحضارة، تبعة تتبع التي سبقتْها. أمّا الإيمان فإنّه الخلاصة الجوهريّة الوجوديّة التي تحتوي كينونة الإنسان في مصيره هنا وفي ما بعد.

شخصانية الذات والموضوع

س : حدّثنا عن جذورك الفلسفيّة التي قادتك إلى الفلسفة الشخصانيّة والتي تمثّلها أبهى تمثيل في الكتابة الفلسفيّة العربيّة.

ج : ما ذكرتَه عن جذوري «الفلسفيّة» هو عندي تجربة يوميّة استقيتها من إيماني بالله وبلبنان وبالإنسان خاصّة وعلى العموم.

لا ريب أنّ التراث الإغريقي، مضافًا إلى تطلّعات الإيمان، علّمنا كيف نقارب أنفسنا وآخرَنا وغيرَنا مقاربةً ذاتيَّةً الموضوعيّة. من هنا كانت الشخصانيّة التي نسبتَها إلى تجربتي، شخصانيّةَ الذات مقترنة بالموضوع. مثلًا أنا إنسان ما (وهذه هي الذات)، ولبنان في مرتجاي كيان مستقلّ (وهذا هو

الموضوع)، إذًا فالنتيجة هي أن الذات إلى الموضوع يكوّنان الشخصانيّة اللبنانيّة. فإذا تعطّل شيء من أسباب التواصل بين هذه الذات وهذا الموضوع، توتّرت الجدليّة فكادت تقارب بعض أشياء العدم، وربّما جنحتْ أحيانًا إلى مهاوي العبثيّة. هذا مثل لا أكثر، وهناك أمثلة متعدّدة لا مجال للإسهاب فيها هنا.

حاولتُ مرارًا أن أُعرّض هذه الشخصانيّة لتجارب الإيجاب والسلب، فكنتُ تارة أشعر أنّني أقارب الغاية التي أسعى إليها، وأحيانًا أشعر أنّني أبتعد عنها مع كلّ جوعي إليها. ذلك أن الجذور، في عصرنا هذا العظيم التشابك حتى الاشتباك، تضطرب في عالم يضيق كلّما اتّسع، ويكبّل كلّما حرّر، ويأخذ كلّما أعطى. من هنا كان الانتصار شبه انكسار، والانكسار وهْمَ انتصار، كأن في كلّ منّا أشياء من هَمْلت ومن دونكيشوت ومن غيرهما.

الجذور في طبيعتها أن تواجه تحدّيات الفروع إلى أن تتأصّل الفروع فتصبح امتدادًا للجذور مع الاستقلال عنها في بعض المواقف.

جذوري، أوّلًا وآخرًا، أزمة تحاول أن تجد لنفسها حلًّا هو بنفسه أزمة جديدة. هذا التواصل المتأزم يشيع في النصوص سلام الحرب التي كُتب على كلّ منّا أن يخوضها مع نفسه ـ ومع نصّه ـ لعلّه يستطيع أن يصل، في ما بينه وبين نفسه

وبينه وبين آخَره وبينه وبين سواه، إلى ميثاق سلام لا يلبث طويلًا حتى تعتريه أزمة جديدة. لا جذور بلا أزمة، لا حياة بلا مشكلة، لا سؤال ولا جواب بلا جدليّة. وإلّا كانت سيرة الإنسان منّا أشبه ببعض البلاغات الرسميّة، التي تُطَمْئن الجميع فيما الجميع على بركان.

س : جذورك الإيمانيّة تعطي كتاباتك بُعدًا مميَّزًا. فهل الروحانيّة بنظرك ضرورة ملحّة لعالم يغوص في الماديّات وتقنيّات التواصل؟ وهل انقطع التواصل بين الأرض والسماء؟

ج : بديهيّ أنّ الروحانيّات هي من صميم الجوهر ومن صميم الوجود. يصعب عليّ أن أتصوّر وجودًا حيًّا لا روح فيه. إذا كنتَ تعرف مثل هذا الوجود فدلّني إليه.

الماديّات، رغم كلّ ما يُنسب إليها مما هو ليس منها في الواقع، تبرهن حركيتها على روحيتها. الدماغ الإلكترونيّ، برغم كلّ ظواهره الوثنيّة، يبقى من صنع الإنسان وكأنّه، في نحو ما، ابن هذا الإنسان بالمعنى السّلاليّ لا بالمعنى اللّاهوتيّ طبعًا.

التواصل الذي أشرتَ إليه في سؤالك ليس نقيض الروحانيّات بقدر ما هو نتيجة لتطوّر الروحانيّات بعد الثورات العلميّة التي عرفها القرن العشرون، والتي زاد عددها ومؤثّراتها على أكثر ما عرفتْه البشرية طوال تاريخها المدوَّن.

فكيف تريد أن لا يشعر العالم بالإرهاق وهو كلّ يوم تحت

ضواغط ماديّة تسلبه كثيرًا من صفائه؟ ولكنّها، في النتيجة، تُبقيه إنسانًا أبدعَ وصنَعَ في قرن واحد ما أدركه الطموحُ المعرفيّ، على مدى قرون، من مثاليّات أخذتْ تصبح أمرًا واقعًا عقدًا فعقدًا.

هذا الحوار بين المثال والواقع هو، في رأيي، حوار بين الروحانيّات والماديّات، حوار يرتقي بالحياة إلى المستوى الأعلى وإن كان لا يخلو من المفاجئات السلبيّة.

«الرباعيّة» وألفة العناصر

س : ولادة **رباعيتك** (منشورات دار **الجديد** بيروت ١٩٩٧)، وكان لي شرف استقبالها معك وجون في لندن، هي حدثٌ فكريٌّ فريد في لبنان والعالم العربي. وهي تشبه بنظري أمّهات الرباعيّات الوتريّة الموسيقيّة. فعناصر المياه والتراب والنار والهواء تتناغم وتتقارب وتتكامل وتنصهر في بوتقة سركيسيّة حيث الكلمة تعبّر عن شفافيّة المضمون على أرضيّة الأسطورة والخيال والواقعيّة. فكيف آلفتَ بين هذه العناصر شكلًا ومضمونًا؟

ج : قصّتي مع العناصر يعود تاريخها إلى ما يقارب ثلث قرن بعد ما انتهيتُ من كتابي **مصير** الذي مهّدتُ به للرباعيّة؛ وذلك أنّني أحاول أن يكون كلّ كتاب أؤلّفه ولدًا لسابقه وأبًا لتاليه، إذ إن الخط الفكريّ الذي أسير عليه يقترح عليّ، عفوًا،

أن أمضي على هذا النهج. فحينما قلتُ في **مصير**، «أنا المغامرة الكبرى، وجه المصير، معنى الأثير والنار والماء والتراب، تفاعُل الأرض وسائر العوالم» كان في ذهني، منذ تلك الأيام، موضوع الرباعيّة، أيْ جدليّة الماء والتراب والنار والهواء.

كثيرًا ما شعرتُ في تجربتي اليوميّة، الواعية واللاواعية، أنّني أتعامل مع العناصر تعاملًا طبيعيًّا. وإذا كان ڠاستون باشلار قد أبعد في تفسيره لعلاقة الماء بالأحلام، وإذا كان الأغارقة قد شُغلوا بهموم النار في ما يتخطّى الأسطورة، حتى إن هيراقليطس اعتبر أن النار أساس كلّ شيء حيّ،فقد أدركتُ، وأنا في مغامرة **جعيتا**، أنّني أبني معبدي على طريقتي، وأنّني في **التراب الآخر** أجبل طبيعتي بطبيعة الآخَر وطبيعة الغير. كما أنّني أدركتُ، وأنا أتقلّب في **زمن البراكين**، أن النار هي ذلك القَدر الممنوع، وأن عنصر الهواء هو، بالنسبة إلى بعض ما عنيتُ في كتابي **أسير الفراغ**، هوائيّةُ لحظات يملأُها فحوى الفراغ.

هذه العناصر الأربعة، على ما بينها من تضادّ ومن تصارع، تؤلّف في مجموعها وحدة كينونة لا معنى للحياة بدونها.

لستُ أعرف شيئًا خلا من أحد هذه العناصر إلّا بدا وقد أعوزه حيويّ لا غنى عنه.

العناصر الأربعة تتناول الحياة وتُشيع فيها معنى التضامن. كما

أنّها تحذّر الحياة من أخطار صراع العناصر. شرط العناصر أن تبقى في تعدّدها وتناقضها ذريعة للوحدة في تنوّعها. فإذا اختلّ التوازن في ما بينها، ظهرتْ سلبيّاته في الخاصّ وفي العامّ.

العناصر الأربعة تعلّم كيف التعايش الذي يتخطّى نفسه إلى الانصهار. وقد يُظنّ أن الانصهار، على النحو الذي أقصد، خيالٌ منفيّ عن أرض الواقع. في حين أنّ الخيال الذي يستمدّ مادّته من تضامن العناصر يُصبح حقيقة ملموسة عند من له عينان وأذنان. البصيرة والفهم شرطان للتضامن. العناصر، بشريّة كانت أو غير بشريّة، تبقى مهمّتها واحدة، لأنّ طبيعتها واحدة. فإذا عَمَهْنا وتصامَمْنا، تعذّر علينا أن نكتنه العناصر فبتنا في فوضى انهيار.

العناصر معنى الكينونة عندنا ومعنى المصير. المهم أن نعرف لغة العناصر من الألف إلى الياء. هنا خلاصنا. الأميّة انتحار، اغتيال للهويّة.

لا إنسان بلا هويّة، لا هويّة بلا معرفة. لا معرفة بلا حريّة. لا حريّة بلا كلمة. العناصر سبيل الكلمة إلى حضارة الخلاص.

مجنون الندوة

س : ظهرت مؤلّفاتك في منشورات **الندوة اللبنانيّة** منذ عام ١٩٥٦ مع **صوت الغائب**، حتى ١٩٧٠ مع **جعيتا**، مرورًا بـ**من لا شيء وأيام السماء ووصيّة في كتاب وأرضنا الجديدة ومصير**.

نعرف القليل عن علاقتك الفكريّة مع **الندوة اللبنانيّة**. فهل يمكن توضيح الدور الذي قامت به **الندوة اللبنانيّة** في إحياء العمل الثقافي وتطويره في لبنان؟

ج : علاقتي الفكريّة بـ**الندوة اللبنانيّة** هي أنّني كنت مستشارها الأدبي منذ تأسّستْ. فكانت مهمّتي تتناول الأمور التالية:

١ ـ المشاركة في وضع منهاج **الندوة** السنوي.

٢ ـ الاطّلاع على أكثر النصوص الندويّة (المحاضرات، ومحاضر جلسات مجلس الأمناء والإذاعات الإعلاميّة التي تتعلّق بنشاط **النّدوة** عامّة وبمحاضراتها الأسبوعيّة خاصة إلخ...) ثم نقد هذه النصوص، بالإضافة إلى نقد مؤسّس **الندوة** لها بعد اطّلاعه عليها وموافقته على مضمونها. ذلك لأنّ ميشال أسمر المؤسّس الكبير كان صارمًا جدًّا في التعامل مع النصوص الندويّة التي تقدَّم ذكرها، بقدر ما كان وديعًا متواضعًا مع أصحابها. وكان ميشال أسمر المؤسّس حريصًا أن لا تتجاوز المحاضرة الستّين دقيقة على الأكثر. وحدث مرّة أن إحدى المحاضرات كانت طويلة جدًّا فقرأناها بصوت عال قبل أسبوعين من موعد إلقائها، فدامت سبعًا وتسعين دقيقة. فارتفع ضغط ميشال أسمر وانزعج، وخصوصًا أن المحاضر كان كمال جنبلاط. فاقترحتُ عليه أن أزور المحاضر الكبير،

فأعرض عليه أن يطيل المحاضرة خمسًا وعشرين دقيقة، على أن يجعل منها محاضرتين متساويتين. فوافق ميشال أسمر، وابتهج كمال بك، وكسبت **الندوة** محاضرة غير متوقّعة.

وهنا لا يسعني إلّا أن أذكر مرارًا وتكرارًا جوّ الصداقة التي نعمتُ بها في معيّة ميشال أسمر، معيّته الشخصيّة المتينة الخُلق، ومعيّته الندويّة التي بُنيتْ على فعل إيمانه بلبنان.

أمّا عن سؤالك لي ما الدور الذي اضطلعتْ به **الندوة اللبنانية** في إحياء العمل الثقافي وتطويره في لبنان، فإنّني أحيلك أوّلًا وآخرًا على **عهد الندوة**، الكتاب الذي رعاه غسّان تويني بعنايته الأكاديميّة وبغيرته التراثيّة العميقة الثقافة. فأصدرتْ **دار النهار** هذا الأثر الذي يدرس ويؤرّخ معظم أعمال **الندوة** من خلال محاضراتها ومنشوراتها تأريخًا يحفظ ذكر **الندوة**، وخصوصًا أنّ محاضراتها التي تقارب الخمسمائة نفدتْ من المكتبات ولم يبق منها إلّا بضع نسخ في أمانة رينه أسمر هربوز بنتِ المؤسّس ووارثة همومه الندويّة.

هذا الكتاب، **عهد الندوة**، بل هذا السِّفر، يقول لنا أشمل ما يمكن قوله في دور **الندوة** الثقافي. ولو شئنا أن نختصر العمل الثقافي الندويّ ومشاركته في حياة لبنان، لقلنا إن **الندوة** في لبنان ١٩٤٣ ـ ١٩٧٥ كانت لسان حال لبنان الثقافيّ في حاضره وفي ماضيات تراثه الحيّ المنفتح على أبعاد المستقبل.

ولكن يبدو أنّنا لم نكن نستحقّ كلّ هذا النشاط الذي نهض به فرد سمّيته «مجنون الندوة». فتركنا **الندوة** تموت قبل موت مؤسّسها الذي أبى أن يعترف بموتها، فلم يشيّعها في مأتم وطنيّ كانت تستحقّه، بل ظلّ يرجو ويؤمّل حتى صدق فيه قول أنسي الحاج على لسان ميشال أسمر «فالخطر الألذّ ليس هو اليأس بل إدمان الرجاء».

س : ريادة **الندوة اللبنانية** هي في طرحها للقضيّة الاجتماعيّة والعمل على معالجتها قبل أن تصبح مشكلة وطنيّة.

ج : وعت **الندوة** الشأن الاجتماعي بفضل مؤسّسها وصفوة من محاضريها وكان في مقدّمتهم الذات الكريمة التي تستنطقني في هذه الساعة. جوزف زعرور كان من أوائل الذين تجاوبوا مع الوعي الندويّ للقضيّة الاجتماعيّة ومن الذين شاركوا في إعداد النشاط الندويّ في هذا الموضوع. أعلم، بصفةِ كوني المستشار الندويّ المزمن، أنّ جوزف زعرور هو أحد الذين وطّدوا العلاقة بين الأب لوبريه صاحب مشروع الإرفد وبين **الندوة**. وكان في طموح ميشال أسمر أن تتناول محاضرات ميشال شيحا عن لبنان القضيّة الاجتماعيّة فيما يعالج شيحا بفكره الثاقب وثقافته الإنسانيّة العالية الشأن اللبناني، وخصوصًا عند البحث في الاقتصاد الحرّ والمبادرة الفرديّة. ذلك أنّ شيحا كان من مؤسّسي مبدإ الاقتصاد الحرّ والمبادرة الفرديّة في لبنان ١٩٤٣. وأذكر أن أسمر قال لي يومًا

ونحن نقرأ بعض محاضرات شيحا: «الغريب أنّ القضيّة الاجتماعيّة شبه غائبة عن هذه النصوص». فقلت لأسمر، إذا كنتَ توافق فإنّني مستعدّ أن أسأل شيحا عن هذا الموضوع وخصوصًا أني عرفته وأنا ابن ستّ سنوات، إذ كان يسكن الطابق الأول من بنايتنا السابقة في زقاق البلاط، وكان يقيم هناك هو والشيخ بشارة الخوري وعائلته. فوافق أسمر. فقصدتُ شيحا في مكتبه في بنك **فرعون وشيحا** في شارع المعرض. فاستقبلني استقبالًا أبويًّا، وذكّرني بالجوار الزقاق البلاطيّ في شيء من الحنين. ثمّ سألني بلطف مرهف عن القصد من هذه الزيارة. فعرضتُ عليه الموضوع بشكل أَشعَره أنّه أعلم منّي به. فابتسم ابتسامة الرضا الذي لم تخفَ عليه طريقة طرح السؤال. وفي هذه الأثناء دخل هنري فرعون مكتب شيحا فدعاه إلى أن يشترك في الموضوع. وفي تلك الأيام لم يكن فرعون قد أصبح رئيسًا لمجلس أمناء **الندوة اللبنانيّة**. فما كاد هنري بك يسمع السؤال حتى أجاب بنبرة سريعة باللغة الفرنسويّة:

"Et les palefreniers vous ne voulez pas les associer aussi à l'action sociale?"

فأَجبته:

Je vous respecte tellement M.Pharaon que je ne me permettrai jamais d'empiéter sur votre domaine. Les palefreniers, les écuries je vous les laisse. Et je vais au fond du problème.

هكذا انتهت المكالمة وهكذا انتهت المقابلة.

فرجعتُ إلى **الندوة** ونقلت إلى أسمر مبلغ «توفيقي» في هذه الزيارة. فلم يجب أسمر بشيء. ثمّ علمتُ منه بعد زمن أنّ **الندوة اللبنانيّة** تهيّئ لنشاط اجتماعيّ تكون المحاضرات الأداة التي تعبّر عنه، سواء من جهة الأب لوبريه، أو من جهة الأب پيار الذي قام بنشاط على هامش **الندوة** أدّى إلى تأسيس **واحة الرجاء** التي كانت **الندوة** منطلقها.

ولكن لنكن واقعيّين، فـ**الندوة** لم تكن الدولة، بل كانت تقترح على الدولة. سلاح **الندوة** الكلمة. والدولة تسمع الكلمة حينًا، ولا تسمع الكلمة أحيانًا. والرأي العامّ ضعيف وشبه مخدَّر. أقلّية وعت خطر الشأن الاجتماعيّ بل أخطاره إذا لم تُنشأ له البنية التحتيّة التي هي الحدود البشريّة لحماية أرض الوطن وسمائه.

أكثر العهود فهمًا للقضيّة الاجتماعيّة، كما شاركت **الندوة اللبنانيّة** في طرحها وبسطها ومناقشتها، كان العهد الشهابيّ. لكنّ هذا العهد كان يدرك أنّ سنوات الرئاسة الستّ لا تكفي إلّا لرؤوس الأقلام. ثمّ كانت العهود اللاحقة، فواجهتِ القضيّةَ الاجتماعيّة على أنّها بعض من قضايا كثيرة أخذتْ تهجم علينا من الجنوب ومن غير الجنوب. فغرقتْ تلك العهود في قضايا متراكمة عطّلت الدولة حتى أجهزتْ عليها حروب ١٩٧٥ ـ ١٩٩٢؛ وكانت بعد

ذلك ورشة الترميم والبناء في ما لها وما عليها. المهمّ بل الأهمّ هو أن ننقذ، من خلال المعالجة المسؤولة للقضيّة الاجتماعيّة، ما بقي من الطبقة الوسطى التي أخذتْ تنهار بشكل يهدّد الكيان الاجتماعي تهديداً يجاوز هذا الكيان إلى جوهريّات الوطن.

حبيبتي الترجمة

س : خليل رامز سركيس! أنت والترجمة؟

ج : الترجمة حبيبتي الثانية من بعد زوجتي. مارستُهما معًا. ولكن لكلّ منهما حصّتها المطوّبة.

الترجمة صداقة. فأنت لا تستطيع أن تعرف شيئًا حقّ المعرفة إلّا إذا صادقتَه واكتسبتَ ثقته. أن تقارب النصّ الذي تريد أن تترجم هو أن تحتويه وأن تدخل فيه وتستنطقه وتقوده أحيانًا إلى كرسيّ الاعتراف حتى يقول لك كل ما في سريرته، ولا يخفي عليك حقيقة أمره.

الترجمة إبداع قبل أن تكون صناعة. والإبداع حرّيّة. أن تقارب النصّ وأنت قلم حرّ يعني أنك لا تخاف من النصّ. الخوف هو ممّا يعطّل الترجمة ويكبّل الكلمة، فإذا القلم يرتجف عن عجز شبه عضويّ.

كان روبير كمب Robert Kemp اللاذع النقد يقول:

«خير الترجمات La meilleure traduction est la plus mauvaise أسوأها». يريد أن الترجمة المتحرّرة، مع وفائها للأصل، هي الترجمة الموفّقة.

النصوص الكبيرة يُعاد خَلقُها إذ تُنقَل من لسان إلى لسان فلا تشعر بمرارة الوحشة وخيبة الغربة، بل هي تسافر من لغة إلى لغة وكأنّها تنتقل من ذاتها إلى آخَرها انتقالًا سهلًا ممتنعًا.

فلا نحسبنّ هذا السَفر أمرًا يسيرًا، وإنّما هو جهد وخَلق وعلم ومعرفة في جرأة عميقة التحفّظ واعية الانفتاح. إنها تحترم الأصل، ولأنها تحترمه لا تستعبده ولا تأذن له أن يسترقّها. ذلك هو الأخذ عطاءً في ما يقال له حوار الحضارات. وهكذا تصبح الرائعة الإنسانيّة، التي وُلدتْ في لغة ما، رائعةً عالميّة متعدّدة الألسنة ما تعدّدت العوالم في مشارق الكينونة ومغاربها. فالترجمة كينونة لها جوهرها ولها وجودها ولها مصيرها في أبعاد الكلمة على تعدّد اللغات وتنوّع الثقافات.

اللغة هنا ثقافة. والثقافة حضارة. الترجمة في ذلك كلّه هيئة للأمم المتّحدة على الحبّ والخير والسلام.

س : قصّتك مع الكتب التي ترجمتها؟

ج : القصّة هنا أيضًا قصّة حبّ لكن بلا غيرة من المحبوبين. أوّل ما ترجمتُ كتاب **الاعترافات** لجان جاك

روسّو (**منشورات اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع - اليونسكو**، بيروت ١٩٨٢). إذا كان الكتاب قد صدر عام ١٩٨٢، فقد أنهيتُ ترجمته سنة ١٩٦٨. ولكن الروتين الإداري، فضلًا عن حروب لبنان، أخّر إصداره.

هنا أذكر بين هلالين أنّ الفيلسوف الفرنسويّ جان لاكروا، يوم زار لبنان في أوائل الستّينيّات، اتّصل بي فقال لي إنّه سيُقترَح عليّ أن أترجم كتاب **الاعترافات** لأنّ روسّو، في الأحوال التي تسود كثيرًا من البلدان عامّة وبلدان الشرقين الأدنى والأقصى خاصّة، يعبّر عن ثوريّة تلك الأحوال. وربّما كان، في بعض ما كتب، ممهّدًا لها وشبه محرّض عليها ولو بصورة غير مباشرة، شأنه في ذلك مثل شأنِهِ وتأثيرهِ في ثورة ١٧٨٩.

روسو علّمني الترجمة. فالرجل قلمٌ صعب المراس، كثير التردّد، يرى ولا يرى، يدري ولا يدري، يحبّ ويكره، في نفَس معًا. وكان روسو إذا اعترته علّة، تأثّر بها أسلوبه فاضطرب كيانه وشرد بيانُه في ما يحيّر المترجم فلم يدرِ من أين تؤكل اللفظة عند روسّو، أمن أعلاها أم من أسفلها، أم من كليهما معًا. السرّ في ذلك كلّه أن يبقى المترجم رابط الجأش كأنّه الطبيب الذي يعالج مريضه روسّو حتى يتسنّى له أن يكمل المسيرة معه.

الترجمة الثانية كانت **الزُنوجة** La Négritude لليوپولد

سيدار سنغور (**محاضرات الندوة اللبنانيّة ١٩٦٦**)؛ ولعلّك تذكر، وأنت الصديق القديم القويّ الحافظة، أنّنا كنّا على غداء عند الملحق الثقافيّ الألمانيّ في بيروت، وكنت أنت المدير العامّ لوزارة الإنباء. ففي أثناء الغداء وصلتْ محاضرة سنغور بالفرنسويّة إلى مؤسّس **الندوة** وكان مدعوًّا إلى ذلك الغداء. فما كدنا نقوم عن المائدة حتى اقترحتَ عليّ ترجمة محاضرة الرئيس سنغور. وكان ذلك يوم سبت ظهرًا، وموعد المحاضرة يوم الاثنين التالي. فانسحبتُ من المأدبة وطرتُ إلى منزلي ومعي المحاضرة بالفرنسويّة. فلبثتُ من السبت ظهرًا إلى الاثنين فجرًا أترجم النصّ، لم أتوقّف إلّا ساعات قليلة للراحة الإجباريّة. فانتهى النصّ على سلام، وأذيعَ بالعربيّة في التلفزيون والإذاعة اللبنانيّة فيما كان الرئيس سنغور يلقي النصّ نفسه في قاعة سينما **الكابيتول**.

النص السنغوريّ تمرين للترجمة مفيد جدًّا لأن صاحبه أُستاذ جامعيّ كبير يحمل أعلى شهادات اللغة الفرنسويّة. فهناك اصطلاحات فكريّة استنبطها سنغور بدقّة العالم اللّغويّ والكاتب الإنسانيّ والمناضل الأفريقيّ الذي يريد أن يقول للعالم إنّ **الزنوجة** ثقافة إنسانيّة للقرن العشرين. هنا أذكر أنّني ترجمتُ لفظة Négritude بـ الزنوجة على وزن العروبة

فاستُعملتْ فيما بعد. وأذكر أيضًا أن سنغور شكر لي هذه الترجمة في أثناء العشاء الذي أقامه له هنري فرعون رئيس مجلس أمناء **الندوة اللبنانيّة**، في قصره. وقال لي الرئيس سنغور يومئذ «في الماضي نقل العرب تراث الإغريق إلى أوروبة. وأنتم، لبنانيّي النهضة الحديثة، وصلتم لغتكم العربيّة بتراث الحضارات».

أمّا الكتاب الأخير الذي ترجمته فهو **بدايات الخليقة** لرينه حبَشي (**المنشورات العربيّة**، باريس، ١٩٦٨).

جاءني يومًا في صيف ١٩٦٧ الأب اليسوعي پول كورون الذي شغل في ما مضى مديريّة المطبعة الكاثوليكيّة، فعُرف عنه أنّه أحدثَ نهضة طباعيّة جاوزت حدود المطبعة التي كان يديرها. قال لي الأب كورون: «أقترح عليك أن تترجم كتاب **بدايات الخليقة**. فأجبتُه على الفور: يشرّفني ويسعدني أن أترجم هذا الكتاب. فحَبشي قيمة فكريّة فلسفيّة خدمتْ لبنان بالعقلِ وبالقلب، وخدمتِ الثقافة عندنا، إذ وصلتْنا بتيّارات فكريّة لم تكن معروفة إلّا عند الأقلّين. فرينه حبشي «محرّض ثقافيّ»، يخاطب لبنان والشرق العربيّ بالفرنسويّة فقط. في حين أنّ الفكر العربيّ يحتاج إلى شيء من أفكار حبشي حتى يغتني به. إذًا هذه الترجمة خدمة قومية تتعدّى الثقافة إلى صميم حضارتنا على تعدّدها وتنوّعها. فقال لي الأب كورون: «كنت

أتوقّع منك هذا الجواب. ولكن عندي سؤال بسيط: «كيف ستترجم حبَشي؟» «فقلت له: ما هذا بسؤال بسيط بل سؤال مركّب والجواب هو على رأس لساني وعلى رأس قلمي أيضًا. رينه حبَشي لا يُترجَم نصّه، ولكن يُعاد خلق هذا النص خلقًا أمينًا جدًّا لأغراضه متحرّرًا من عبقريّة اللغة الفرنسويّة، مستقرًّا في عبقريّة اللغة العربيّة. فعندما يستشهد حبَشي بهملت إذ يقول: Le temps est sorti de ses gonds لا يسع المترجم إلّا أن يقول: «لقد استشاط الدهر». فقال لي الأب كورون: «اتّفقنا». فقلت له: عندما أكتب لا أنظر إلى الساعة ولا أجيب التلفون وأنزع المفاتيح من جيبي. فأبقى أنا والنصّ كما خلقتَنا يا ربّ. ولكن عندي شرط واحد هو أن أقرأ النصّ المترَجم على المؤلّف سطرًا سطرًا. فينقده فنتناقش في أمره، فنتّفق على النصّ النهائي. فالمراجعة ضروريّة في كلّ حال. وهكذا كان.

هنري عويس

حديث الصديقَين

خليل رامز سركيس ربطته بجان جاك روسّو وليوپولد سنغور ورينه حبَشي صداقة من خلال نصوصهم التي «احتواها وقادها إلى كرسيّ الاعتراف فقالت له ما في سريرتها». فتمكّن من ترجمتها.

ولخليل رامز سركيس صديق من نوع آخَر لم يأت إليه منشورًا بين دفّتي كتاب، فهذا الصديق أصلًا لا يتحمّل أن يتحوّل كلمات في كتاب، بل يفضّل أن يبقى كلمات متنقّلة، أو، كما يحبّ، نوطات متنقّلة في دفاتر الموسيقى على البيانو العتيق، في قبو تكاد تدمع حجارة عقده عندما ينساب النغم.

هذا الصديق يشبه ليون وارْث الذي تحدّث عنه أنطوان دو سانت إكزوپري في **الأمير الصغير**، أو الأصحّ، هذا الصديق

جريدة **النهار**، الملحق، بيروت، ٨ تشرين الثاني ١٩٩٧. كُتب تعليقًا على حديث جوزف زعرور مع خليل رامز سركيس.

هو أمير صغير يسعى إلى الحقيقة من خلال الزهرة، والنجمة، فقد هبط على كوكب الأرض يومًا والبراءة لم تغب بعد عن عينيه. وإذا كان إكزوپري في إهداء **الأمير الصغير** قد بحث عن حجج ليسوّغ إهداء الكتاب إلى صديقه عندما كان ولدًا صغيرًا، فلا خليل رامز سركيس ولا جوزف زعرور هما بحاجة إلى تسويغ إهدائهما الواحد للآخَر باقة الصداقة التي يحملانها، يقدّمها كل واحد منهما للآخَر فيكاد فضيض الماء يجرحها. وسركيس وزعرور هما ولدا **الندوة اللبنانيّة** المدلّلان، عاشا رؤيا لبنانيةً كادت، لو تمسّك بها القيّمون، أن تبعد عن لبنان الكأس المرّة.

هذا الحديث بين الصديقين هو بوح شفّاف، أو قطرة ندى تحملها زهرة استفاقت لتوّها «فعل رجاء» يمكّنها من ولوج «الباب الضيّق».

عيسى مخلوف

خليل رامز سركيس في إذاعة الشرق
«الحريّة في بعض الأحوال شهيدة الحريّة»
«إنقاذ العالَم بالفكر والجمال».

صدرتْ أخيرًا عن دار **الجديد** في بيروت ثلاثة كتب جديدة لخليل رامز سركيس هي **التراب الآخَر** و**زمن البراكين** و**أسير الفراغ**، فضلًا عن طبعة جديدة لكتاب **جعيتا** الذي كان صدر للمرّة الأولى عام ١٩٧٠ في منشورات **الندوة اللبنانيّة**.

عن مضامين هذه الكتب، وبدايةً عن العودة إلى النشر تحدَّث خليل رامز سركيس إلى عيسى مخلوف في باريس في **إذاعة الشرق** في أوروبة. فقال سركيس يجيب عن سؤال لمخلوف:

س و ج في إذاعة الشرق، باريس، تشرين الثاني ١٩٩٧.

ج : إنقطاعي عن الكتابة لم يكن بلا سبب. السبب هو حروب لبنان. بدأتُ الرباعيّة: **جعيتا والتراب الآخَر وزمن البراكين وأسير الفراغ** في أوائل السبعينيّات. فنُشر كتاب **جعيتا** سنة ١٩٧٠. ثم أكملتُ العمل على المسوَّدة. فانتهيتُ في أواخر السبعينيّات. ثم أَضربتُ عن الكتابة، وهاجرتُ، وبقيتُ نحوًا من عشر سنوات مضربًا عن الكتابة إضرابًا عامًّا شاملًا؛ إذ لم يكن في وسعي أن أُمسك قلمًا ولا أن أُملي حرفًا واحدًا لأن الحرب أثّرتْ فيَّ أَعمق التأثير، وخصوصًا أَنني كنتُ أقيم في منطقة من بيروت حامية جدًّا وحارّة جدًّا شهدتُ فيها من الأهوال وقاسيتُ فيها ما لا يُذكَر إلا بالتأثّر والألم والإشمئزاز.

س : خليل رامز سركيس كتبك الثلاثة الجديدة هي، من حيث الأسلوب، امتداد لكتاب **جعيتا** الذي كان صدر قبل الحرب اللبنانيّة كما ذكرتَ. إلا أن هذه الحرب تركتْ بصماتها على تأمّلاتك الجديدة وفي الأخصّ على كتابك **أسير الفراغ**. فما تعليقك؟

ج : قلتُ في صفحة من **أسير الفراغ**: «أُمّة ضارية تفترس معنى الإنسان كأنّ كل ما فيها أنياب». إنها أُمّة تُغيِّب الإنسان في هوائيّةٍ لحظات. الأمّة، هنا، هي، في جملة ما هي عليه، آفات الحرب. الحرب التي تقتل. الحرب التي تصنع مبتكرات كثيرة وتسبب محدَثات كثيرة. لكنها، من حيث كينونة

الإنسان، غالبًا ما تقضي على ما عنده من رجاء في أَخيه الإنسان الآخَر وغير الآخَر أيضًا. ذلك ممّا أَوحى إليّ أَن أَكتب **أَسير الفراغ** على أن الفراغ رمز للعنصر الهوائيّ، الهوائيّ اللحظات.

جعيتا: الماء .**التراب الآخَر**: التراب. **زمن البراكين**: النار. **أسير الفراغ**: الهواء.

هذه العناصر الأربعة متفاعلةً، متشابكة، متكاملة، تؤدّي الكينونةَ إذ تؤدّي إليها. والكينونة سلميّة حينًا، ولاسلميّة حينًا، وحربيّة مدمّرة حينًا، على نحو ما أفصحتُ عنه في **أسير الفراغ** وفي **زمن البراكين**.

س : هناك طبعة جديدة لكتابك **جعيتا** والمقصود بعنوانه مغارة **جعيتا**. و**جعيتا** في الكتاب رمزٌ للماء وللرجاء. أفلا تزال **جعيتا** عندك، مع كل ما حدث منذ كتبتَها إلى اليوم، واحة رجاء؟

ج :ـ **جعيتا** تبقى هي إيّاها على اختلاف الفصول وتناقض العهود وتناسخ الأيّام والحضارات .**جعيتا**، عندي، رمز لشيء كبير .**جعيتا** مكان صغير، قطرة ماء في الأوقيانوس. ولكن، كما يقول پول كلوديل: Chaque goutte d'eau sent que toute la mer est occupée à la solliciter.

وكلوديل يعني بذلك أن كل قطرة من ماء تشعر أن البحر

إليها كلُّه يعانيها، يقاربها، يريدها، يبتغيها، يتولّاها بالرفق والحبّ والحنان. هكذا نريد لـ **جعيتا** أن يقاربها العالَم. **جعيتا** هنا رمزٌ للإنسان، ورمز للبنان.

س : يطغى طابع التأمّلات الفلسفيّة على كتاباتك. ففيها تجاذب بين الأدب والفلسفة والفكر. كيف توحّد كل ذلك في نصّ معًا؟

ج : الكلمة بيتُ الكائن كما هو معروف. والكلمة، عندي، توحّد الفلسفة والأدب في ما يتخطّى المناهج الفكريّة إلى كينونةِ الشيء المؤلَّف. هنا الشيء كائنٌ حيّ يقارب الحياة والموت مقاربةً فكريةً وجماليةً معًا. وقديمًا قيل إن الجمال سينقذ العالمَ يومًا ما، كما قيل إن الفكر سينقذ العالمَ يومًا ما. «أنا أفكّر إذًا أنا موجود»، أنا أحبّ الجمال فأعانيه وأشعر به فأنا إذًا حيّ.

س : لكنّك تقول في أحد نصوصك، في بعض كتبك الجديدة، إننا إذا عدنا إلى بداية العصر الحديث، وجدنا أن فكرة الحريّة التي حسبناها تغلّبًا على اللاحريّة، هي عبوديّة لنا جديدة.

ج : الحريّة مقيِّدة ومقيَّدة. الحريّة هي في عصمة النظام الذي يحتويها إذ تحتويه. لكنّ الحريّة كثيرًا ما أسيءَ استعمالها فارتُكبتْ باسمها أمور لا تمتّ إلى الحريّة لا من قريب ولا من

بعيد. فكانت الحرِيّة، في بعض الأحوال، شهيدةَ الحريّة. من هنا كنا نعاني الأزمة بين الحريّة في واقعها وفي مرتجاها. الحريّة مرتجى كلِّ حيّ. إنها شيء يُبدَع ويُصنَع في كلّ ساعة وكلّ لحظة. الحريّة ليست شيئًا جامدًا متحجّرًا؛ بل هي شيء يصير معنا وفينا وبنا وإلينا من خلال أنفسنا إلى آخَرنا وإلى غيرنا.

عيسى مخلوف: خليل رامز سركيس، شكرًا.

يقظان التقي

خليل رامز سركيس: «الحياة تراب الموت، لا أكاد أرى إلا المستقبل الذي يعمّد بالنار، نار المعلوم ونار المجهول وما بين النارين».

خليل رامز سركيس في **هو وهي** يجمع العناصر الأربعة ليروي حكاية أدبيّة فلسفيّة. في كتابه **أسير الفراغ، هوائيّة لحظات**، يقول إن «لكل إنسان حقّه في تلك الحكاية، لكن أَحتمٌ علينا أن نكون زمنَين معًا، زمن حبّ وزمن حقد؟ [...] تاريخنا فراغ على امتلاء بل هو امتلاء على فراغ.»

المتشائم خليل رامز سركيس في **أسير الفراغ** يقول إن الأكثريّة والأقليّة علاقة معقّدة قد تكون مرشّحة لمزيد من الأزمات. تُرى ما علاقة الصلاة بتلك العلاقة؟

جريدة **الأنوار**، بيروت، ١٩ كانون الأول ١٩٩٧.

في رباعيّته الصادرة عن دار **الجديد**، بيروت، تتفاعل العناصر الأربعة في كتبه **أسير الفراغ**، **وزمن البراكين**، **والتراب الأخَر**، **وجعيتا** ـ تتفاعل إلى مستوى الوجود. ومن مركز **جعيتا** بتنا نعرف مركزنا من أين؟ إلى أين؟ متى؟ كيف؟ لماذا؟ ولو بعض المعرفة. هيراقليطس فِي **جعيتا** والماءِ حركةُ مصيرٍ للموتِ قطبَ اتّجاه. أليس كل حيّ تحدِّده العناصر الأربعة؟ نحن في **جعيتا** نحاول أن نسوِّغ الخرافة الواقعيّة، الإنسانَ حيال نفسه وإزاء العالم وبين يدي الإله.

بيوتنا ليست مدرسة لاهوت، بل هي كاتدرائيّةُ إيمان، مياهُ نعمة، نشيدُ حبّ في ربيعٍ طيّب الأنفاس.

في كتاب **التراب الآخَر** يرسم سركيس صورة معبِّرة فيها كثير من الريف اللبنانيّ ومن الجسد الذاهب امتدادًا في الكثافة الترابيّة وكثافة الآخَر: «كان يحرث أسئلته وكأنه يحرث أرضه الريفيّة وعينُه على مستقبل الأثلام.

كان يشقّ التراب، ترابه والتراب الآخَر، ومن خلال ذلك يشقّ طريق إيمانه مهما يَحلْ دونه من صعاب.»

وفي عودة إلى ميثولوجيا الإنسان ـ الإله، يضيف سركيس أن الحياة تراب الموت، وأن التاريخ وُلد في تراب الخطيئة مثلنا، وأنه مخلِّص روحًا وجسدًا، إذ يتّجه إلى غاية نموٍّ

واكتمال في حقيقة الإله.

زمن البراكين عند خليل رامز سركيس في بُعده الثالث، الناريّ، هو ذلك القدَر الممنوع الذي اسمُه النار. هو زمن معظم العصور، طاقةُ حياة تلهب هيامنا بالوحدة الكلّيّة التي تبدو كأنّها منطلَقنا إلى مرسى الأحلام النهائيّة الطُموح، على غير ما توقّفٍ ولا جمود. وفي نظرة إنسانيّة شموليّة ينعطف سركيس على الزاوية الإنسانيّة التي أمامها قضيّتان أساسيّتان: السلام والإيمان.

هو: «لمَ الرجاء؟

هي: لو قتلتُ الرجاء، لقتلتُ اليأس.

هو: أشَدُّ ما نخاف هو أن نواجه المستقبل، مستقبل الإنسان في الإله وقد أعوزتنا الكينونة فيه.[...]

هي: سيرتي سفَر من تحرير إلى حريّة، ومن استثمار إلى تثمير. [...]

هو: كما أن البركان فعلٌ وردُّ فعل، فكذلك شأن الإنسان. [...]

هي: أصبحتْ مفاهيم الحريّة، حريّة الاختيار، مخلَّفات رجعيّة لا تكاد تصلح إلا لبعض المتاحف. [...]

هو: لا أكاد أرى إلّا المستقبل الذي يعمّد بالنار، نار المعلوم ونار المجهول، وما بين النارَين.»

لعلّ أشد المواضيع إثارة للأسئلة عند خليل رامز سركيس في رباعيته هو حديثه عن الحريّة. ففي حين يقول في كتاب **التراب الآخَر**: «ما إنسان الحريّة نتيجة للمصادَفة»، يذهب في كتاب **جعيتا** إلى القول: «نحن نحاول أن نسوِّغ خرافةً حقيقيّة: الإنسان حيال نفسه وإزاء العالَم وبين يدي الإله.» لكنه في **زمن البراكين** يذهب إلى مفهوم آخَر يبدو متناقضًا، فيقول: «أصبحتْ مفاهيم الحريّة، حريّةِ الاختيار، مخلَّفاتٍ رجعيّة» [...] «ذلك القدَر الممنوع الذي اسمُه النار.» وهذا يبدو مخالفًا لإنسانه الأوّل، ابنِ تاريخٍ هو فعلُ تطوّرٍ عضويّ يتّجه إلى غاية نموٍّ واكتمال في حقيقة الإله.

تبقى مسوِّغات أخرى دوَّنها سركيس، ومنها أن الإنسان لا يكتمل شخصه إلا في حيّز من شروط الزمن والتاريخ، لذا نرى سركيس متعلِّقًا بزمنه الأول البيروتيّ النابض حضورًا في شخصه. المسوِّغة الثانية التي يوردها هي أن التضامن قيمةُ الديموقراطيّة الفضلى. فالحريّة شيء، والاستقلال شيء آخَر. ثم إن الأكثريّة والأقلّيّة علاقة معقَّدة قد تكون مرشَّحة لمزيد من الأزمات التي تعكس النزعات الأثنيّة الحديثة.

المسوِّغة الثالثة هي في الشأن الثقافيّ. فهذا الشأن، على أقصى مرتجياته، حسْبه أن يحقّق مشروع الكلمة تحقيقًا مرحليًّا نسبيًّا، لا تحقيقًا نهائيًّا مطلَقًا. وهذا ينسحب على المشروع

الثقافيّ الذي ينهض به سركيس ويراه غير مكتملٍ في عهده الدائم التغيّر والتبدّل والصيرورة «إنما الحبّ عملٌ مِن عمل إلى عمل.» والبعد الميتافيزيقيّ هنا ثلاثيّ الأبعاد: نضال، وحبّ، وطفولة.

المسوّغة الرابعة هي البعد الوجوديّ. واختلال نظام التوازن ما بين الإنسان العتيق المحدود والإنسان الجديد اللامحدود هو أدهى العلل التي توقظ البراكين في كثير من بواطن الروح والنفس والجسد.

فعلًا قد يكون هذا الزمنُ زمنَ البراكين دون الوقوع في الشرَك الفلسفيّ الميتافيزيقيّ الذي يفصّل العناصر، ويقدّمها على بعضها البعض، ويصيِّر بعضها قطبًا لبعضها الآخَر. فخليل رامز سركيس يحاول أن يرفعها جميعًا في صيرورة واحدة هي لا شكّ مشبعة بالنفور والتجاذب، إذ في داخل الماء البارد سخونةٌ ما، وفي داخل النار برودةٌ ما، وفي الهواء فراغٌ علي امتلاء، وفي التراب امتلاءٌ على فراغ، وفي الوجود الكثيف أُمّةٌ ضارية تفترس معنى الإنسان.

وفي هوائيّة اللحظات أسيرٌ في الفراغ. إنها حلقة بحثيّة ممتعة ومخيفة في آن. تبعث الرجاء واليأس في آن. والجميل فيها رحلة خليل رامز سركيس الوجوديّة، وعودته بهيراقليطس إلى جعيتا. إنه تكثيف للآلهة في زمن واحد يحاول الإنسان أن

يقاربه في أبجديّةِ الأصوات المتعدِّدة، وخليل رامز سركيس أحدها، يصيِّرها ما بين النارين، بين الإنسان العتيق والإنسان الجديد. ونحن نسأله عنهما في رباعيّته (منشورات **دار الجديد** بيروت).

وهذا نصّ الحوار:

العناصر الأربعة

س : اخترتَ العناصر الأربعة للرباعيّة، لماذا هذا الاختيار؟

ج : اخترتُ العناصر الأربعة لأننا نتعامل، نحن والعناصر، كلَّ يوم. نتعامل بتفصيلٍ حيّ وبتفاعل وجوديّ يوميّ.

هذا التعامل المتفاعل العناصر يفرض نفسه ويقترح نفسه على من يريد أن يقارب الموضوع. والفلاسفة الإغريق كانوا من أوائل الذين لفتوا العناية الفكريّة إلى هذه العناصر، حتى إن هيراقليطس كان يحسب النار العنصر الأساسيّ. وفي اعتقادي أن العناصر الأربعة، إذا انصهرتْ كلّها معًا انصهارًا ذاتيًا حُرًّا، أدّت إلى وحدة الكيان. من هنا جاءت هذه التجربة الفكريّة التي عانيتُها ما يقارب ربع قرن.

الزمن البيروتيّ

س : الإنسان لا يكتمل شخصه إلا في حيّز من شروط الزمن والتاريخ. ماذا عن الزمن البيروتيّ الذي تحمله شخصيّة خليل رامز سركيس؟

ج : الإنسان لا يستطيع أن يعيش في خارج الزمن وفي خارج التاريخ. الإنسان ليس مخلوقًا مؤبَّدًا، ولكنه ابن بيئة زمنًا ومكانًا وتاريخًا وتراثًا وذاكرة.

الإنسان الذي يفقد ذاكرته يفقد الكثير من أشياء هويّته. وهنا نصل إلى خصائص السؤال عن الزمن البيروتيّ. فأنا وُلدتُ في بيروت، وعشتُ فيها ما يقارب ستّين سنة. وعانيتُ بيروت في تاريخها منذ قبل الزلزال الذي هدمها، إلى الزلازل البشريّة والسياسيّة التي هدمتْها وخرَّبتْها وخرَّبت الكثير من إنسانها فيما كانت تزلزل المنطقة بأسرها. الزمن البيروتيّ عندي قصّةٌ مع مدينة حاولتُ جهدي أن أكون ابنها، وحاولتُ جهدي أن أشعر أنها أمّي، وحاولتُ جهدي أن أستنطقها لكي تكون لي الكلمة التي أؤدّيها بالقلم واللسان.

بيروت، عندي، حضارةُ مدينةٍ غريبة في بابها، تجمع الفضيلة إلى الخطيئة، وتكاد تَكون المرأةَ والرجلَ في كيان واحد. هذه الـ Unisex في بيروت دِينُها غريب الشكل والمضمون، لذلك أحببتُها وما أزال أَحنُّ إليها فأشعر أنني منها وفيها على الدوام.

مشاريعي لا تتحقّق

س : تقول إنّ الشأن الثقافيّ على مرتجياته حسْبه أن يحقّق مشروع الكلمة تحقيقًا مرحليًّا نسبيًّا، لا تحديدًا نهائيًّا مطلَقًا.

هل تحقَّقَ مشروعك الثقافيّ؟

ج : ليس من مشروع إلا وهو مرحليّ ونسبيّ. ليس من مشروع مطلَق نهائيّ قد فُرغ منه. الإنسان الحيّ لا يفرغ مِن عمله، بل يبقى أبدًا في عالم الصيرورة. فإذا ازددنا تعمّقًا وصلنا إلى حالة المصير.

تسألني هل حقَّقتُ مشروعي؟ مشاريعي لا تتحقّق أبدًا، بل تبقى تصنع نفسها، تستمدّ ممّا يأتي المستقبل الجديد الذي لم يأتِ بعد. هكذا هي حياتي. هكذا هي كتبي. ليس عندي من شيء نهائيّ على الإطلاق. هكذا تعوّدتُ أن أكون. هكذا أحسب معظم الذين يسيرون على الطريق ويبقون في حركة، فإذا توقَّفوا حلَّ الجمود.

س : في زمن البراكين قلتَ إن أمام الحضارة الإنسانيّة قضيّتين أساسيّتين: السلام والإيمان. هو يقول: «لمَ الرجاء؟ لو قتلتُ اليأس لقتلتُ الرجاء.» فهل لك أن تفسّر هذه العبارة؟

ج : الرجاء هو الإيجاب. واليأس هو السلب. والجدليّة بين الاثنين شيء واجب الوجود. فإذا حذفنا الرجاء، لم يبقَ من حاجة إلى اليأس. العدم مقابل الوجود. اليأس مقابل الرجاء. هكذا هي الحياة أخذٌ وعطاء في حوار سلبٍ وإيجاب. فإذا انقطعتْ أسباب الحوار على المستوى الفكريّ والفلسفيّ أو

الأدبيّ أو السياسيّ والاجتماعيّ والاقتصاديّ، تعطّلتْ أسباب الحياة.

الإنسان الجديد

س : تحدثتَ أيضًا عن اختلال نظام التوازن بين الإنسان العتيق والإنسان الجديد غير المحدود. عن أيّ إنسان جديد تكلّمتَ؟

ج : تكلّمتُ على الإنسان الجديد الذي ورث عن الإنسان العتيق الأشياء الحيّة من التراث، فاعتنقها وتصرّف فيها، وصار بها ومنها وإليها، ثم تخطّاها. فإذا امتنع الإنسانُ عن هذا التخطّي، ورسبتْ نفسه في الأشياء العتيقة فلم يستطع أن يتحرّر من محتوياتها وممّا فيها من أمور سلبيّة وأمور إيجابيّة، تفجّرتْ فيه البراكين.

الإنسان يحتاج إلى أن يعبّر عن نفسه وإلى أن يجدّد نفسه. هذا التجديد شيء غير محدود في الإنسان. المحدوديّة هي النهاية: «راحَ، ألله يرحمو»، ذلك هو الواقع سواء في مَواطن الروح أو مَواطن الجسد أو النفس، أو فيها كلها معًا. ولا فرق عندي في مقاربتي هذه الأشياء الثلاثة. كل شيء بلا تخطٍّ يقضي على نفسه.

صور الحريّة

س : في كتاب **التراب الآخَر** قلتَ: «فما إنسان الحريّة

نتيجة للمصادَفة، لكنّه ابنُ تاريخ وفعلُ تطوّر يتّجه إلى غايةٍ نموّ واكتمال في حقيقة الإله.» وفي كتاب **جعيتا** قلتَ: «نحن نحاول أن نصوغ الخرافة الحقيقيّة.» وفي كتاب **زمن البراكين** قلتَ: «أصبحتْ مفاهيم الحريّة وحريّة الاختيار مخلّفاتٍ رجعيّة لا تكاد تصلح إلا لبعض المتاحف.»

س : هل من توضيح؟

ج : الحريّة أصبحت، اليوم، أن تختار أنت ما أَفرض عليك. هكذا حالُ كثير من المجتَمعات. أكرِّر: الحريّة أصبحتْ أن تختار ما أُريده لك. لذلك أرى أن مفهوم الحريّة يبقى في أزمة ناشئة عن ازدحام حركة السير، السير النفسيّ والسير الجسديّ، في مختلف أقطار الإنسان. الإنسان، في يومنا هذا، مشغول بأمور كثيرة يضطلع بها في وقت معًا. فأصبحتْ حريّته مفروضة عليه من هذه الأمور. ففي المنجزات الحديثة لم يبقَ الإنسان حُرًّا في أن يقطف الوردة التي يريد، ساعة يريد. إنه مقيّد ببرامج الكومبيوتر والإنترنت وسائر المنجَزات الرائعة والمروِّعة معًا، تلك المنجزات التي أمست الحريّة معها حُكمًا مفروضًا بأساليب علميّة وطرق محدَثة تزداد ضغطًا لحياة الإنسان وإلحاحًا على حياته ــ حياته اليوميّة والماورائيّة.

عيسى مخلوف

لبنانيّ اغتنى بفقره
خدَمَ ولم يَستخدِم

عيسى مخلوف

أَتصل بك الآن وقد نعي جوزف زعرور في لبنان إلى أصدقائه وعارفيه وأنتَ مِن أقدمهم.

خليل رامز سركيس

جوزف زعرور صديقُ أَربعين سنة على الأقلّ. غير أني أضع الصداقة جانبًا، فأتحدّث عنه إنسانَ خُلقٍ ومعرفة ذا ثقافة تتعدّى النصوص إلى أعماق الحياة في جوهرها وفي وجودها. ثقافته رسّخت إيمانَه بقيَمِ الدين والدنيا. الثقافة بمعناها الأصيل

حديث أجراه عيسى مخلوف على الهواء من إذاعة الشرق في باريس مع خليل رامز سركيس في لندن، في ٢٧ آب ١٩٩٨، لمناسبة وفاة جوزف زعرور أحد كبار رموز الثقافة والإدارة والتعليم في لبنان.

عند زعرور هي أن يحيا على مستوى الإنسان وأن يعيش على مستوى الحياة. كان يفهم الوشائج البعيدة الجذور بين الحياة والمعيشة. كان ملتزمًا يُعنى بالقضايا التي تشغل الناس في مصالحهم الروحيّة والماديّة عنايته بجمال الحياة طبيعةً وفنونًا.

زعرور وُلد في بيت اغتنى بفقره. زعرور صنع نفسه بنفسه لا بغيره. ورث عن أبوَيه روح الكدّ والجدّ والاجتهاد والاتّكال على النفس. تقلَّب في أرفع وظائف الدولة مديراً عامًا لبضع وزارات، من وزارة النقل، إلى وزارة الإعلام، إلى وزارة التربية الوطنيّة والفنون الجميلة (كما كانت تُسمّى في بعض ما مضى)، إلى وزارة الدفاع الوطنيّ. ثم انتهى إلى أن يكون على رأس مجلس الخدمة المدنيّة. في جميع هذه الوظائف لم يكن زعرور موظَّفًا، بل كان، قبْل ذلك، إنسانًا يخدم الوظيفة ولا يستخدمها.

ع. م. من هنا يُنظَر إلى زعرور على أنه رمزٌ من الرموز الثقافيّة في لبنان.

خ. ر. س. جوزف زعرور رمزٌ ثقافيٌّ حيٌّ. حيٌّ في غيابه مثلما هو حيٌّ في حضوره. لم يكتنه الثقافة بمضمونها الفلسفيّ والحِكَميّ فحسْب؛ ولكنّه، إلى ذلك، اكتنه الثقافة بشأنها اليوميّ البسيط. كان يخاطب الزهر والشجر، ويخاطب الأطفال، ويخاطب رؤساء الدول بعفويَّةِ البساطة نفسها، وبالاتّضاع نفسه، وبالجرأة نفسها. كان صريح القول، صحيح

الرأي. فما أحوجنا إليه ولو مِن بَعدِ غيابه!

مختلف الفئات اللبنانيّة، على تعدّد طوائفها ومَواقفها، شاركتْ زعرور في الحوار الثقافيّ والوجوديّ والوظيفيّ ثلثَ قرن على الأقلّ. جوزف زعرور كان له وجوده ــ وجوده المتّضع إلا أنه الوجود العميق ــ في كثير من المشاريع والأعمال التي قام بها القطاع العامّ والقطاع الخاصّ في لبنان على توالي عهوده. كان زعرور الإنسان الذي لا يكاد يُستغنى عنه، رغم اعتقاده أن القبور ملأى بالذين كانوا يحسبون أنهم لا يستغنى عنهم!

لم يكن زعرور حزبيًا. ولم يكن طائفيًّا. ولكنّه كان لبنانيًّا بكلِّ ما في اللبنانيّة مِن مضمون الجامع القوميّ المشترَك، إيمانًا منه بالله وبالوطن وبالقيَم التي هي الحدود المعنويّة لصيانة الوطن وترقية المواطن وتحريره روحًا ومادّة.

جوزف زعرور تركَ أصدقاء كثيرين. إلّا أن الفراغ الذي تركه كان أكثر عددًا مِن أصدقائه.

ع. م. خليل رامز سركيس أنت تعتبر أن أهميّة جوزف زعرور هي أنه كان وجهًا توحيديًّا يجاوز الانتماءات الطائفيّة الضيّقة، المتصارعة.

خ. ر. س. زعرور عملَ في سبيل الوحدة المسكونيّة على نطاقَين: عمل في سبيل الوحدة المسكونيّة بين الطوائف

المسيحيّة، وعمل في سبيل الوحدة الوطنيّة بين «العائلات الروحيّة» في لبنان. من هنا كانت مشارَكتُه انطلاقًا من الخاصّ إلى العامّ. وذلك، من حيث الفلسفة، أَفضلُ طرقِ المشارَكة إذ ينطلق الإنسان من ذاتيّته إلى موضوعيّته انطلاقًا مؤسَّسًا على التجربة وعلى المحاوَرة الإيجابيّة.

ع. م. شكرًا خليل رامز سركيس.

يقظان التقي

انتحارُ زواج مدَنيّ
النهر ألقى نفسه في البحر!

عانى خليل رامز سركيس، في رباعيّة صدرتْ عن **دار الجديد** في بيروت سنة ١٩٩٧، عناصر الطبيعة الأربعة، فألَّفَ عملًا وجوديًّا في كتبٍ هي **جعيتا**، **والتراب الآخَر** **وزمن البراكين** **وأسير الفراغ**. فكانت رباعيّةُ سركيس شبهَ استعادةٍ لعودةٍ ميثولوجيّة إلى الإنسان الإله المتحرّر في طاقةِ حياةٍ شغلتْها الكلمة، وشغلها أيضًا الاختبار البيروتيّ الذي ابتلاه المؤلّف في كتابه **الهواجس الأقليّة** (دار الجديد، ١٩٩٣)، من خلال تجربةٍ فكريّة امتدّت، عبْر زلازل بشريّة وسياسيّة، إلى ما يزيد على ثلث قرن. فخلص منها إلى ثوابت تقول، في جملةٍ ما تقول، بأنّ اختلال نظام التوازن ما بين الإنسان العتيق والجديد هو مِن أدهى

جريدة **المستقبل**، بيروت، ٢١ أيلول ١٩٩٩.

العلل التي توقظ البراكين في كثير من بواطن الأشياء وظواهرها.

خليل رامز سركيس، المقيم في لندن، أتبعَ تلك الرباعيّة كتابًا جديدًا صدر له عن **دار الجديد** (١٩٩٩) وعنوانه **زواج مدَنيّ/ بَعْل وبَك.**

الكتاب حوارٌ رمزيّ في مَسيرةِ مؤلِّفه يدور على ما يعتقده حقيقةً بجوهريِّها وبوجوديِّها ـ حوارٌ «وُلد في مخيّلة بعلبك.»

وفي ما يلي حديث مع خليل رامز سركيس عن عالَم رموزه في مؤلَّفه الجديد.

س : في الرباعيّة ألّفتَ بين العناصر الأربعة، فبَنيتَ هيكلًا أَطلقتَ منه ميثاقَ مثنّى الحبِّ في زواج مدنيّ، على ما يبدو.

ج : الواقع أن الرباعيّة مقدّمة لما بَعْدها، أي لكتابي الجديد **زواج مدنيّ**، كما أن هذه الرباعيّة نتيجة لبعضِ ما قبْلها من كتب **أيّام السماء وأرضنا الجديدة ومصير.** ذلك أني تمرّستُ بالعناصر منذ ابتدأتُ أفكّر وأشعر فأكون.

هذا التمرّس أوصلني إلى خطّ فكريّ أَخذَ ينمو فيّ فأُخذتُ أرقى فيه، على تفاعلِ رؤًى وتكاملِ مواقف أَدّت إلى تلك المؤلَّفات.

س : **زواج مدنيّ** تسويةُ حبّ في حوار مع الآخَر؟

ج : إنّه وفاء أكثر ممّا هو تسوية. الوفاء يتخطّى التسوية،

كما أنه حوار مع الآخَر. والهيكل يُبنى على زواج بعل الإله ببك المدينة. هنا نتعاطى الرموز. ألسنا، وخصوصًا ههنا، مِن مُواطني عالَم الرموز التي تفضي بنا إلى ما نرى أنه حقيقة؟ لقد نَفينا عن بك الخيانة: «عشرون قرنًا ـ فضلًا عمّا قبْلها ـ نبتتْ شؤونها في رأسي. لكن لم يزعم أحد أنكِ عِلّةُ هذه القرون». إنّ بَك كمثْل امرأة قيصر؛ إنها «المدينة الكبرى التي تَسود ملوكَ الأرض.» [...] «هكذا الحبّ وإلا فلا. لكن ربّما وقعنا، بعضَ أحيان الحبّ، على حالات لا أثر له فيها لولا الذي يكابد من بعض أحيان الحقد» كأنّما نحن حيال قضايا جدليّة.

س : لكنّ الزواج، هنا، زواج تجريديّ، إذ تقول: «ليتني أَقدر أن أشيع في كلماتي ما في الموسيقى من كلمات.»

ج : الموسيقى، هنا، رمزٌ للجمال. والجمال قد ينقذ العالَمَ، على حسب قول دوستويفسكي.

«ما ذلك ربح وخسران، كما تقول بك لبعل، بل هو موسيقى، موسيقى هيام.» هنا يدخل الميثاق إذ يقول بعل لبك: «أنا الرابح إذا أَنتِ ربحتِ؛ وإذا أنتِ خسرتِ فالخاسر أنا.»

س : جعلتَ من جنّة عدن تسويةَ معرفة، تسويةً إنسانيّة وإلهيّة، إذ قلتَ: «سِيرتُنا في الهيكل هي مِن عملِ البشر في حضارة الحجر، ومِن عملِ الحجر في حضارة الإنسان ـ

البشرِ في طبيعة التاريخ، وعملِ الحجرِ في تاريخ الطبيعة.»
ونقلتَ مغامرة المعرفة، شجرةَ المعرفة، تفّاحةَ الزوجَين الأوّلَين في جنّة عدن، إلى تفّاح ملايين البشَر.

ج : هنا الجنّة تتخطّى نفسها. فما هي بشيءٍ جامد. إن شجرة المعرفة تنمو نموًّا مطّردًا. فلو بقيتْ كما كانت، لأَمست شجرةً اصطناعيّة؛ وهذا غير معقول ولا سليم. الشجرة ـ شجرة المعرفة ـ ما تنفكّ جذورها تمتدّ في مختلف عوالم الحياة، حتى إن المعرفة كادت تقضي على حضارة الأسرار، إذ طوّرت كثيرًا من شؤون الدين والدنيا وما بَيْنهما. فأُصبحت المعرفة، في مصيرها المستمرّ التطوّر ـ والتفجّر في أحيان ـ، جدليّةَ إيجاب هو في أشمل أسباب التلاقي، مع ما بالتلاقي من سلبيّاتٍ غامضةِ النتائج.

شجرة المعرفة، هذه، موصولة بالتحوّلات التي تؤدّي إلى ثوراتِ إيمان وثوراتِ عقائد.

ذلك مصير الحياة، إذ البشر حياةُ التاريخ. والعكس هو الجمود، أي الموت.

س : لكنك سخرت من الإيديولوجيّات.

ج : قلتُ في بعض صفحات **زواج مدني**: «نريد أن نفهم، فنقبل أو نرفض، نبني في هيكلنا ما نقدر أن نحيا فيه نحن والمستقبل. فلا مسوّغ، عندنا، للماضي ولليوم الحاضر إلّا مع

الغدويّات.» [...] «وربّما بلونا تقدّميّات متعدّدة الألوان.»

لست أَسخر من الإيديولوجيّات. بل العكس هو الصحيح. نحن نستفيد منها. نأخذ عنها ما نجده موافقًا لنا. ذلك هو التعاطي الحُرّ. ذلك حوار الثقافات. الدنيا حوار. الحضارات تتخاطب. تتعامل. تتوالد. تلك هي التقدّميّة الأصيلة. تلك هي الغدويّات الحقيقيّة، آفاقُ التجارب والإبداع.

س : تحدّثتَ عن «الحشيش البعلبكيّ» العريق الذي أزهر تراثُه قبْل أيام الحشّاشين، فماذا قصدتَ؟

ج : نحن هنا في عوالم رموز مع إخوان الدعوة وفدائيّي السِرّ في صراعِ القهر فصلًا تلو فصل. الدعوة هنا صراعٌ في صميم السِرّ، ودفاعٌ عن هذا السرّ عيْنه. هنا، الحشيش رمزٌ من بستان المعرفة المتنوِّعِ شجرُه عقيدةً ومعرفةً ورؤًى معطَّرة. «ليس في عطري المُعاصر كثير من غابرِ تلك الذكريات، ملوِّثاتِ الأصل منّا في الشكل والمضمون.»

س : تعترف بلسان بَغْل أنك ساذج في حضرة صيّادي الأُسُود، ـ بحسب المأثور الأفريقيّ القديم، ـ ما دامت الأُسُود ليس لها مؤرخون. فما وراء ذلك؟

ج : أشدِّد على الذاكرة. إنها، عندي، مستودَع المجد الذي لعله ينقذنا من الضياع. أعني، هنا، ذاكرة الشعب الذي يحافظ على كنوزه القوميّة، التاريخيّة والجغرافيّة، فيعرف ما كان عليه

وطنُه وما صار إليه. فالاستقرار، أحيانًا، شيء آنيّ معرَّض للزوال إذ تهدِّده الزلازل البشريّة التي قد تهدم كثيرًا مما كنا نحسبه في الثوابت المؤبَّدة. «لو نسمع، لو نرى، فنذكر أنه من روحِ أرضنا ومن جراحِ تاريخنا بعثَ فينا الاضطهادُ حريَّةَ شهدائنا وقد استوت بنا مآثرها إلى مستقبليّات المدى في مبتكراتِ المضمون والشكل.»

لكن، إلى ذلك، أقول بأننا إذا أبَيْنا أن نفهم الآخَر مثلما ننتظر منه أن يفهمنا، نكون قد اعتدينا على فكره بينما نحن نرفض أن يعتدي هو على فكرنا. إن اللافهم هو تعدٍّ من أية جهةٍ أتى. وهذا يطرح على مجتمعاتنا تبعاتٍ عِلْمِيّةً عامّةً وتبعاتٍ تربويّةً خاصّة.

س : تقول: «الاغتراب مقامُ تجديد في قيامةِ رجاء أو في وهمِ رجاء. حذار. حذار. عند ساعة الحقيقة ينكشف الأمر. إنِ الحرِّيّةُ والوطنُ الآخَر ومُقامُ الفرحة الجديدة، وما إلى ذلك وما عنه، إلّا أخيلةُ كلام.»

ج : الموقف هنا على شفيرِ هاويةٍ ذاتِ إشاراتٍ متعدِّدة، نفسيّة وماديّة، وأحيانًا عبثيّة. لسنا ننتظر شيئًا. لسنا ننتظر أحدًا. لكن، مع ذلك، نحسّ أن كلّ ما فينا ينتظر، ينتظر أن يرجع أهلُنا، وطنُ سجايانا. آفاقٌ غريبة اجتذبتْ أهلنا.

الغربة، هنا، غربة ثلاثة ملايين، وليست هي الانتشار اللبنانيّ

المعهود. تلك الغربة جرحُ أعماق، إذ الإقامة في الوطن يتمّ في بعض الأحيان.

س : ألن ترجع إلى لبنان؟

ج : لا أعرف. نحسّ، في بعض الساعات، كأننا ركّاب طائرة تائهة. العدم وراءنا والمجهول أمامنا.

س : تقصد المسافة التاريخيّة، الأضدادَ لا الأبعاد؟

خ ـ في اللحظة المعلوماتيّة الحديثة، نستطيع أن نختصر أبعاد الوقت، لكننا لا نستطيع أن نختصر أبعاد التاريخ: الأضداد، تلك هي المشكلة.

الزمن سيّد يتحرّك، يحرّك، يجادل، يلغي ما قد يسمّى البُعد. لكن التاريخ هو الذي يعطّل التقارب إنْ لم يُبنَ التاريخ على تواصلِ معرفةٍ وعلى مَنطقِ تحوّلٍ طبيعيّ يأبى التكرارَ الآليّ الموجَّه.

لعل الخلاص هو أن نبني أنفسنا على طموحِ تاريخنا المستقبليّ نابضًا بتراثِ فرحنا وجرحنا، لا على أيِّ تاريخٍ كان.

ولعل الخلاص هو أن ننشئ وطنَ هويّتنا التي حُرمناها، فنجعله وفقًا لتكامل معطياتِ أنفسنا وآخَرينا وسوانا في عالَمٍ لا خلاص له ما لم تتحوَّل أضدادُه إلى تقاربِ أبعاد.

س : تقول إن شعار «لا غالب ولا مغلوب» شعارٌ بائد.

وأحيانًا، تقارب الحربَ وكأنكَ تتودد إليها...

ج : الحرب غريزة حتى عند بَعْل. وأحيانًا يشعر بعْل بحيرةٍ إذ يلمس أن لا خلاص بلا حرب. غير أن شعار «لا غالب ولا مغلوب» يمثِّل عندي مقاربةً تاريخيّة عامّة لا مقاربة سياسيّة خاصّة. فأنا لا أمارس العمل السياسيّ، بل أُقاربُ الشأن السياسيّ بمفهومه العلميّ.

س : أكيد أن خليل رامز سركيس مع الزواج المدنيّ في مقاربته السياسيّة؟

ج : إني أؤيد الزواج المدنيّ، وأَستحسنه، وأعتقد أن غيابه نقصان في حياتنا الروحيّة والمدنيّة. لكنني واسعُ الصدر أحترم حقَّ غيري في معارضته للزواج المدنيّ وذلك مراعاة منه لمصالح تاريخٍ وذاكرةٍ وتراث. بيد أن هذا لا يمنعني أن أقول بأن الزواج المدنيّ يجب أن يتحقّق في بلدٍ يحترم العقل.

إن هذا الموضوع ينطبق على عنوانِ كتابي **زواجٍ مدنيّ: بَعْل الإله يقترن ببك المدينة**. إنه زواج مدنيّ مُهَيكل كما سمّيتُهُ. لم أزوّج بعل بأَفروديت مثلًا، بل قصدتُ أن أزوّجه ببك المدينة، بحيث ينطبق العنوان على بعض مقاصد الكتاب ويذكّر بأشياءَ ثابتة برغم مواقف المعارضين.

س : لكنْ، في فاصلٍ مسرحيّ في نهاية الكتاب، نرى الطائرة المروحيّة تسقط على الهيكل بمن فيها، أي ببعل وببك

فتهدم الهيكل ويسقط الزواجُ المدنيّ.

ج : الجوّ، بل العقليّة السائدة رفضتْ هذا الزواج فأسقطتْه. إنه انتحار، أحيانًا، كرفض الحريّة والديمقراطيّة ومسوّغات الحياة المدنيّة الحضاريّة. وهنا السؤال ما نفع السلام إذا كان الهيكل الذي في مخيّلة بعلبك قد هدمتْه الحرب؟ الهيكل، هنا، رمزٌ لموقفٍ تقدّميّ، موقفٍ غَدَويّ يقارب المستقبل مع وفائه للماضي وللحاضر.

هنا يجب أن نذكر أن الحبّ هو الذي بنى هيكلَ زواجٍ مدنيّ، وأن اللاحبّ هو الذي هدم ذلك الهيكل.

س : لا خلاصة نهائيّة؟

ج : الخلاصة، عندي، هي بزواجِ السعادة والمعرفة في حرمةِ الهيكل. إنها مشروعُ تكاملٍ حرَكيٍّ مستمرٌ المصير والطموح. متى كان للمطْلَق نهاية حدود؟

س : سؤال أَخير: المثنّى في كيانه المفْرد، والمعيّة الميثاقيّة، ذلك كلّه، مجازًا، يقارب إهداء الكتاب إلى جوزف زعرور من جهة، ويقارب الآخَرين من جهة ثانية. لكن، في أول الشيء، النهر الذي ألقى نفسه في البحر هو خليل رامز سركيس. أليس كذلك؟

ج : للقارئ حُرِيَّةُ أن يفهم فيقرِّر. للقارئ الحق في حريّة السلوك والتأويل. البحر، هنا ، هو المدى زمنًا ومكانًا. الانتحار

هو القلَق الذي ينطوي على رجاءِ النهر إذ يلقي نفْسه في البحر، لعلّه يجدها. المعرفة موصولة بالخطيئة وبالغفران. إنْ جرحتُكَ، جرحتُ نفسي. لا يسعنا أن نتعايش مجروحَين. بالحُبّ خلاصُنا ولو هُدم هيكلنا، ـ بالحبّ ههنا وفي ما بَعْد.

أحمد أصفهاني

خليل رامز سركيس: «لبنان وطني وغربتي معاً.»

خليل رامز سركيس أديب ومفكّر لبناني، معاصر وحديث وسليل عصر النهضة والتراث العالمي، منذ الإغريق حتى الفلسفة الحديثة. غادر سركيس لبنان منذ أن اندلعت شرارة الحرب، فهو لم يكن مهيّأً ليبصر وطنه يحترق تحت نار أهله وسواهم. فهذا الوطن كان يعني له، في ما يعنيه، أرض الحوار الحقيقي بين الحضارات، شرقيّة وغربيّة، وبقعة الروحانيّات التي صنعت التاريخ وموئل الأفكار الكبيرة والمبادئ والعقائد. هاجر سركيس من لبنان، لكنه حمله معه، بفكره وقلبه، وفي غربته اللندنيّة راح يواصل مساره الفريد، أدبًا وفلسفة وتأملًا. وهناك كتب ما حسن له أن يكتبه، من نصوص وحواريات متأنقة في لغتها، رشيقة في وقعها، بليغة من غير كلفة، فلسفية

جريدة الحياة، لندن، في ١ تشرين الثاني ٢٠٠٩ و١٩ نيسان ٢٠١٠.

متجذّرة في الذات والوجود. لم ينكفئ سركيس في غربته ولم يلذ بالصمت بل أكمل عمارته الفكريّة الأدبيّة التي كان باشر في تشييدها، أيام كان في بيروت، أيام كانت بيروت في قلب ديمومتها.

في هذا الحوار، يستعيد خليل رامز سركيس ذكريات غاليات وصورة زمن كان، ويلقي ضوءًا على شؤون وشجون بات هو من العارفين القلّة لها. وقد شارك في هذا الحوار الزميل رؤوف قبيسي.

س : متى وأين وُلدتَ، وهل لديك ذكريات عن أيّام الطفولة والفتوّة والشباب؟

ج : وُلدتُ سنة ١٩٢١ في بيروت، في حيّ زقاق البلاط وشارع خليل سركيس. لكن مسقط رأسي الوراثيّ هو عالَمُ المطبعة ومشتقّاتها: **المطبعة الأدبيّة** التي أسّسها جدّي خليل سنة ١٨٦٦، وكان مقرّها الأوّل في سوق أياس. ثم غيَّر جدّي اسمها سنة ١٨٧٧ فأصبح: **مؤسّسة لسان الحال**؛ وكانت تضمّ الجريدة، وآلات الطباعة، ومسبك الحروف (مسبك سركيس للحروف العربيّة)، وقسْم التجليد، ودار النشر. وكان العاملون في المؤسّسة يزيد عددهم على الخمسين، وكان أكثرهم من الذكور إلّا في قسم الخياطة لمَلازم الكتب، إذ وُكل أمرُها إلى بعض الإناث.

ثم نُقلتْ **لسان الحال**، قبل الحرب الكبرى (١٩١٤-١٩١٨)، إلى بناية في شارع البوسطة القديمة، شارع البطريرك الحويّك في يومنا هذا، فاستقرّت المؤسَّسة هناك إلى أن تخلَّيتُ عنها سنة ١٩٥٩، فوقفتُ معظم العمر على الكتابة والتأليف، على ما أَشرتُ إليه في حديث سابق. بيد أن ذاكرتي لم تتخلَّ عن **لسان الحال**، بل هي ما تفتأ تعود بي إليها بين الحين والحين، تريني صُوَرًا لها في شبْهِ شريطٍ لمسوَّداتٍ وكتبٍ وآلاتِ سبكٍ وطباعة وتجليد وما إليها، وتُمثِّل لي، في ما تُمثِّل، كيف كانت الحروف تُنضَّد باليد قبلما اختُرعتْ آلة المونوتيپ للتنضيد حَرْفًا إلى حرف، فلفظةً في إثر لفظة، ثم آلة اللينوتيپ سطرًا تلْو سطر. غير أن تلك المخترَعات لم تلبث طويلًا حتى استُغني عنها، فاستُبدلتْ بها، في هذا النحو، منجَزاتُ النهضة الطباعيّة الحديثة، فمُعجِزاتُ الثورة الإلكترونيّة وما قد يليها على تسلسلِ لحظاتِ الشاشة المتحرِّكة في ما يسابق هرولةَ العصر فلا يني يكتشف مزيدًا من طاقات التجديد في ميادين شتّى، على اختلاف المراحل عندي ولدى سواي فضلًا عن الآخَرين، ثمّة وهنا وهناك، في حيويّات المجال العامّ والخاصّ.

تلك المراحل، بين سنة ١٩٣٠ وسنة ٢٠٠٩، تقلّبتُ في أشياء منها على ما قُيِّض لي من مجرى أحوالها والأحداث، فعايشتُها في ظواهر لها، وسبَرتُها في غَوريّات، وفقًا لطبيعة

الحياة التي أَسبغَ عليّ بَرَكتَها نشاطُ العشرين، مع أنّي أجاور التسعين أو أكاد. ولئن عمَّم رأسي المشيب، فما ذلك سوى عرَضٍ خارجيّ؛ أمّا الداخليّ الصميم،فهو، نسبةً إلى نبض الساعة التي أنا فيها، وثْبُ حركة في همّةِ شباب.

سألتَني عن أيّام الطفولة والفتوّة. مختصر الجواب هو أن أيّامي تلك لم تكن فسحةً لعبٍ وتنزّهٍ بقدْر ما كانت المقدِّمةَ لحركةِ نموٍّ في طموحِ مستقبل وُلِدَ إنسانٌ مصيره في مقاصد التأهّب لتمامِ أوانه ولما بَعْدَها من ممكنات المعلوم والمجهول. فكان أن تلك الحركة شبْه الدائمة، إذ كلّ عملٍ في الجريدة والمطبعة ومسبك الحروف وفي سائر أقسام المؤسَّسة يجب إنجازه في موعده، ـ كان أن تلك الحركة المنظَّمة قد طبعتْني على أن أعي معنى الوقت فأُقدِّر تبعاته، وأتجنَّب الإضاعة له ما استطعتُ. فنشأتُ على التشدّد والتدقيق في أغلب الأمور، كبيرها وصغيرها إجمالًا وتفصيلًا.

الخطّ والكتابة

فلما بلغتُ سنتي العاشرة، أهدى إليّ مدير **لسان الحال** مَقْلَمةً احتوتْ بضعة أقلام رصاصيّة ومقْبضةَ رِيَش معدنيّة يقال لها «رِيَش مَلّا» وتُراوِح أسنانُها بين الرقم ١ الضيّق والرقم ٤ الوسيع. وأضاف إلى المقلمة قُنَّينةَ حبرٍ أزرق اللون وكرّاسًا لتعليم الخطّ العربيّ على حسَبِ قاعدةِ **عَلّام** المدرسيّة. فراقتْني

الهديّة، وطاب لي أن أَرقم الألفاظ أَرسمُها على القرطاس حَرفًا إلى حرف. ثم ازددتُ ميلًا إلى فنّ الخط، فقصدتُ كامل البابا في محترفه بجوار شارع المعرض في بيروت؛ فرحَّب بي أَكرم ترحيب، كما ذكرتُ في حديث سابق.

كان كامل البابا، أبو وارثِهِ في الخطّ مختار البابا، هو ونسيب مكارم وفؤاد اسطفان وسيّد إبرهيم وأحمد حسني من كبار الخطّاطين العرب المعاصرين. فرحتُ أتردَّد إلى محترف البابا مرّتين في الأسبوع نحوًا من سنتَين راسلتُ من بَعْدهما معلّمه نجيب هواويني، الشاميَّ المتمصِّر المقيم في القاهرة؛ وكان ذلك قُبيل الحرب العالميّة ١٩٣٩-١٩٤٥، كما تقدَّم لي ذكْرُه في بعض صفحات الوفاء.

كان نجيب هواويني عميدَ خطّاطي جيله؛ وكان من أركان مدرسة تحسين الخطوط العربيّة في مصر؛ فرحَّب بي هو أيضًا. ثم رقَم لي اسمي، فطبَعتُه على ما أَستعملُ من أوراق المكاتيب وبطاقات الزيارة والمغلّفات؛ وما أزال إلى اليوم أُعيد تلك الطباعة. وأَذكر أن هواويني كان يخطّ بقلم من غزّار يغطّه في لِيْقَةٍ مبلَّلة بالحبر الإسطمبوليّ الفاحم الذي عُرف في شرقنا قبْل الحبر الصينيّ. وكان خطّاطنا، حيثما ذهب، وضعَ في جيبه قلم الغزّار والليقة وقُنّينة الحبر. فعلّمني بالمراسلة بضعة خطوط مع قياس حروفها بالنقَط ومع هندسةِ ألفاظها وسطورها وحركاتها وفقًا لقاعدةِ كلِّ خطّ منها. أمّا رسائله الشخصيّة،

فكان يكتبها بخطّه الفارسيّ الهواوينيّ الأسلوب والمستقلّ، في شيء ما، عن الخطّ الفارسيّ الذي يقال له «نَسْتَعليق» والذي يمتاز به الخطّاطون في بلاد فارس وپاكستان والجوار الآسيويّ هناك. فبقيتُ عدّة أشهر أتدرّب، في سوانح المراسَلة، على الخطّ الرقعيّ والفارسيّ والنَسخيّ والثلثيّ، فضلًا عن الخطّين الديوانيّ والديوانيّ الجَليّ. لكنّني لم أُصْبح خطّاطًا، ولا رغبتُ في أن أحترف عمل الخطّ، مع كلِّ ما بفلسفةِ الخطّ، رسّامِ الكلمة، من جزالةِ بيانٍ وجلالةِ مَعانٍ روحيّةِ الضمون. فاتخذتُ من الخطّ هوايةً لي، في بعض أوقات الفراغ. ثم ألهمني الحسّ أن بخلفيّة هذه الهواية دعوة إلى الكتابة والإفصاح؛ فلبّيتُ الدعوة كأنما القلم قدَري ومصيري طوْلَ مراحل العمر.

في ذلك كلِّه ـ في المطبعة وأخواتها، وفي الخطّ، وفي مُناخ الكتابة والتأليف ـ كان مسقط رأسي، كما سلف ذكره. أمّا مسقط القلب منّي والوجدان، فهو أبدًا لبنان، لبنان فوْق كلِّ فوْق.

أوّل الطريق

س : كيف بدأتَ التأليف؟

ج : بدأتُه بالمختصَرات تأليفًا فترجمة؛ ثم تدرّجتُ إلى النصوص المسهَبة؛ فإلى الفصول المتكاملة كتابًا في إثر كتاب.

س : ألا تزال تكتب إلى اليوم، وماذا تكتب؟

ج : الكتابة، عندي، مثْل التنفّس، فلو انقطعتُ عنها لاختنقتُ.

مِن أجْل الكتابة تخلّيتُ عن الكثير الكثير، فلم يكدْ يعوّقني عنها شيء. الكتابة حياتي، صَلاتي، محرِّرتي من تسلّط الدهر غابرًا وحاضرًا إلى مستقبلِ أيّام. هذه الثلاثيّة الزمنيّة أحاول أن أَبني على معطياتها كيانًا لي متحاورَ العناصر في تجاوب لها ونتائج. (سأعود إلى موضوع العناصر في بعضِ ما يتيسَّر من هذا الحديث.)

أمّا ماذا أَكتب اليوم، فإن ذلك ممّا أحتفظ به في أمانةِ سِرِّه إلى أن أُنجزَه بلا وعدٍ منّي ولا ميعاد.

س : هل تكتب الشعر، وهل لديك من هواية غير الكتابة؟

ج : لم أرتكب الشعر قطّ وإن استهوتْني روائعه؛ ولطالما تغنّيت بها، وردَّدتُها، فاغتنيتُ. لكن، مع ذلك، تبيَّنَ لي أنّي كُتبَ عليّ النثر، فاستوطنتُ عالَمه، وطوَّفتُ في أقطاره، فلقيتُ أَنسابًا لي في شجرةِ أُسرته القلميّةِ جَدًّا وأبًا فولدًا وحفيدًا، ومَن قَبْلهم ومَن بَعْدهم من أجيالِ تجدّدٍ متعاقبِ الفصول في رَبيعيٍّ تفتّحٍ وصيفيٍّ نضجٍ إلى خريفيٍّ وداعٍ وشتائيٍّ اكتئاب.

أمّا عن سؤالك حوْل «هواية» الكتابة، فإن جوابي، الذي يراوح بين الهواية والهويّة والهاوية، هو أن الكتابة، عندي، ليست هواية على الإطلاق؛ ولكن الكتابة هويّتي، ولولاها

لانتهيتُ إلى حافة الهاوية، فاضطربتُ في أزمات الخيبة والتشتّت والضياع. أمّا هوايتي فهي الموسيقى والمشي.

س : مَن أوّلُ مَن عرفتَ في **لسان الحال؟**

ج : رامز سركيس (١٨٨٩-١٩٥٥)، أبي، أوّلُ من عرفتُ. (أفضِّل «أبي» و «أمّي» على «والدي» و «والدتي»، لأن اللفظتَين الأخيرتَين تصوِّران لي دارًا للتوليد...أكثر ممّا توحيان إليّ، الآن على الأقلّ، بمعاني الأبوّة والأمومة.)

أيّام الطفولة لم أَعرف أبي في البيت بقدْرِ ما عرفتُه، مِن بَعْدها، في مكتبه بِـ **لسان الحال**؛ إذ قليلًا ما كان يعود مِن عمله قبْل العاشرة ليلًا وأنا، في تلك الساعة، نائم. ثم كنتُ أبكِر إلى المدرسة، صبحيَ التالي، قبْلِ أن يفيق أبي من النوم. وذلك أن رامز سركيس تعدَّدت حقولُ نشاطه، فتوزَّعتْ بين مؤسَّسة **لسان الحال**، ونقابة الصحافة التي انتُخِبَ رئيسًا لها ستَّ مرات، ومهمّاتُ السياسة، ومنها عضويّة الحكومة ومجلس النوّاب؛ فضلًا عن عنايته بمصالح الطائفة الإنجيليّة التي كان يمثّلها في البرلمان، برغم ابتعاده عن الطائفيّة ومشكلاتها.

لبنان والثقافة

س : كيف تريد أن يكون لبنان الثقافيّ، وما هي النصائح التي تقدِّمها إلى وزيرالثقافة، وما مستقبل الثقافة في لبنان؟

ج : أوّلًا ليس لديّ من نصائح أسديها إلى أحد. حسْبي أن أتلقى بعناية وامتنان كلَّ نصيحة تسدى إليّ مِن الثقات خُلقًا ومعرفة.

ثم إنْ أَذن لي القارئ، صارحتُه بأن المستوى الثقافيّ العامّ، في لبنان، لا يدعو إلى التفاؤل. لستُ وحدي على هذا الرأي؛ ولكنْ أَجد أن كثيرًا من أفراد النخبة الباقية في لبنان ليسوا دوني تخوّفًا على مستقبل الثقافة في البلد الذي فرّقتْه عللُ الانقسام.

أيّ لبنان نريد؟ هنا المسألة التي ينبغي أن نتحاور في ما لنا حيالها من حقوق وفي ما علينا من موجبات قبل أن نبحث فنتباحث في جوهريّات الثقافة. الثقافة في لبنان ليست قضيتُها سببًا، ولكنها نتيجةُ معضلةٍ يتعذّر علينا أن نتصدّى لها قبْل أن نعالج عِللها معالجةً موضوعيّة جريئة.

س : ما الحضارة اللبنانيّة عندك؟ أَمَشرقيّةٌ أوروبيّةٌ هي، أم عربيّةٌ متوسّطيّة، أم مزيجٌ من هذه وتلك؟

ج : لا هي هذه، ولا هي تلك. المزيج لا يكفي؛ وقد يؤذي. التنسيق، في نظري، هو الأَولى. التنسيق إيجابيّ؛ والمزيج التوفيقيّ ــ أو التوافقيّ ــ عامِلُ سلْب.

إذا صفت النيّات وصحّت العزائم، بات في مرتجى المستطاع أن يكون لبنان، بالقوّة وبالفعل، واقِعَ حقيقته

الجغرافيّة والتاريخيّة التي لا تحتمل النعوت. لبنان بلا نعت نريد. لبنان منزَّهًا عن رجْسِ المحاولات المعنويّة والبنْيويّة التي تبغي أن تغتصب حرمة ثوابته، فتستحِلّ كرامةَ كيانه، وتشوِّه طبيعةَ إنسانه فردًا وجمعًا، في تراثِ خصوصيّات وقِيَمِ ابتكار.

هاجر ولم يهجر

س : الحرب اللبنانيّة هجّرتْك وكتبتَ عنها. هل تشعر بالغربة، وكيف تقضي أوقاتك في لندن، وماذا تذكر عن لبنان من أشياء حلوة؟

ج : هاجرتُ، لكنْ لم أَهجر. كلَّ لحظةٍ أنا في لبنان، في صميم قضاياه ومعطياته. لا مؤمَّلاتُه تغيب عنّي ولا المهدِّدات. لبنان وطني وغربتي معًا. لا ازدواجيّة بموقفي هذا ولا انفصام.

أمّا كيف أقضي أوقاتي في لندن، فكما كنتُ أقضيها، بنحوٍ ما، في حُرّيّةِ بيروتِ قبْل الحرب: حياة قراءة وكتابة وما إليهما وما عنهما من شؤون الثقافة يُسرًا وعسرًا وبيْن بين، ذلك مع المراعاة لفوارق السنّ والزمن والمكان.

وأمّا الذكريات، لا الحلوة وحْدها، بل أيضًا الذكريات المُعَلْقَمة، فقد أَوردتُها في كتابي: **الهواجس الأقلّيّة من زقاق البلاط إلى كنسنغتن**[1]، ولا مسوِّغ، هنا، للتكرار.

---

(١) **الهواجس الأقلية من زقاق البلاط إلى كنسنغتن**، منشورات دار الجديد، بيروت ١٩٩٣.

س : ننتقل إلى الأدب ومشتقّاته: هل من أدب لبنانيّ مميّز عن الآداب العربيّة؟

ج : لا يسعني أن أجيب إجابة مسؤولة، لأنّي لم أطّلع على هذا الموضوع اطّلاعًا وافيًا.

س : في الماضي، كنا نسمع عن رعيل من أرباب اللغة والشعراء والكتّاب الكلاسيكيّين؛ كأنْ يقال، مثلًا، أمين نخلة، خليل رامز سركيس، ميخائيل نعيمة، عمر فاخوري، الأخطل الصغير، وسواهم. لماذا لا نسمع، اليوم، عن رعيل جديد من هذا الطراز؛ هل ماتت الكلاسيكيّة في لبنان؟

ج : أَفهم أن تذهب إلى أنّي في عداد أولئك الأكابر وهم، كما تدري، من أعلام الأبوّة التي تَقدُّمني شوطُها مسافةَ جيلٍ واحد أو جيلَين. أقول ذلك بصراحة البساطةالعفويّة، البعيدة عن غرور الكبرياء ومركّبات التفوّق ومزيّفات الاتضاع. فلقد عرفتُ مستوى كتاباتي، وما يترتّب عليّ حيالها من تبعات، وما لي بها من منزلة لدى صفوة القرّاء. وعرفتُ، أيضًا، أنني لا أنتسب إلى ثقافة ذلك الجيل الأبويّ، المؤسّس، بقدْر ما أُنتمي إلى ذاتيّة قلمي، بمحاسنه ومساوئه، لا أدّعي العصمة أبدًا.

ثم إذا كنّا لم نسمع برعيل جديد من سلالة أولئك العمالقة، فربّما عاد السبب على ثقل في السمع... أَعني السمع الذي

أَضعفَ حاسّته ـ وذاكرته ـ تراكمُ السنين!

أمّا عن شبْهِ نعيك للكلاسيكيّة في أدب لبنان، فمؤدّى جوابي هو أن الكلاسيكيّة قلّما تنقرض، ولكنها ترقد إلى وقت مجاور أو بعيد؛ ثم تهبّ فتَنهض وقد شبَّتْ فتطوَّرتْ في ما يقال له نيوكلاسيكيّةُ الكتابة والرسم والتصوير والنحت والموسيقى والرقص والتمثيل وغيرها من فنون الجمال.

أخويّة القراءة والكتابة

س : أيّ الكتب أَحبّ إليك؟

ج : أَحَبُّها إليّ الكتاب الذي يعلّمني القراءة ـ القراءة بمعناها الكيانيّ المتفوّق وبمداها الإنسانيّ المتعمّق في روح موضوعها وفي جسده أصلًا وفروعًا.

هنا القراءة أُختُ الكتابة سموًّا وقِيَمَ عطاء.

الرّمز المختار، في تجرُّد هذا القصد، صديق لي وصلتْني به، عبْرَ الأُوقيانوس، قراءتُه لمؤلّفاتي قراءةً فائقةَ العناية والتأنّي والشمول.

الاسم والشهرة: طوني شَعْشع؛ السنّ: ٥٨؛ الجنسيّة: لبنانيّة؛ الإقامة: نيويورك؛ العمل: الكتابة والترجمة؛ الوظيفة: شغلٌ في شركة للنشر.

شعشع إنه، في حقّ الذمّة والاختبار، مثالُ القارئ الأفضل. إذا اعتنق النصّ، تقلّبَ فيه لفظةً فلفظة؛ ثم جملةً فجملة؛ ثم

صفحةً فصفحة؛ ثم فصلًا تلْوَ فصل؛ ثم كتابًا يُبحر بقارئه إلى عوالم الإبعاد في آفاق التعالي والطموح.

لا ريب، عندي، أن طوني شعشع تُخجله قولتي، هذه، وإن اعتزَّ بها؛ ومهما يكن مِن أمره إزاءها، أُعلنْها شهادةً تستحقّها مزاياه القرائيّة التي انتقلتْ «عدْواها» إلى يراعته المقلّة، لعلَّه يُفرج، يومًا، عن قلمه المرهَف صنعًا وإبداعًا ربّما استقاهما شعشع من برْدونيّةٍ مسقط رأسه، زحلة، وقد نأَتْ به عنها دواعي الاغتراب.

س : لو فُرضتْ عليك رحلة قسْريّة إلى جزيرة نائية، على أن تحمل كتابًا واحدًا، فأيّ كتاب تأخذ معك؟

ج : لو فُرضتْ عليّ تلك «النزهة»، لكان جُلُّ ما فيه أفكّر جدًّا هو التخلّص والفرار... لا يسعني أن أقرأ وأنا أَسيرُ القسر. إنّ الحرّيّة، في عصمة نظامها، هي حقٌّ واجبُ الوجود. مَن حُرمها حُرم نعمةً من أَكرم نِعم الحياة.

س : بعض الدراسات أَظهرتْ أن نسبة من يطالعون الكتب في لبنان لا تتعدّى ١٤ بالمئة. ما سببُ هذه الظاهرة: هل هو الكتاب، أم المؤلِّف ، أم المترجِم، أم تراجُع اللّغة العربيّة، أم الهجمات عليها؟

ج : الواقع أن نسبة القراءة الجدِّيّة هي على انخفاض في معظم البلدان، لا في لبنان فحسب. إلّا أنها، في لبنان وسائر

الدول العربيّة، أَكثرُ انخفاضًا ممّا هي عليه، إجمالًا، في بلدان الغرب.

زارني، في الشهر المنصرم، اختصاصيٌّ بهذا الموضوع يعمل في دار للنشر في باريس. فذكر لي، في مجرى الحديث عن نسبة القرّاء، أن الشاشة التلڤزيونيّة ومشتقّاتها أخذتْ تُنافس المنشورات المطبوعة (الجريدة، الكتاب، إلخ...) كأنما عصر غوتنبرغ قد انتهى إلى بعض أواخره. وأضاف الاختصاصيّ يقول إنه كما حَلَّت المطبوعات، منذ غوتنبرغ إلى يومنا، مَحلَّ المخطوطات، كذلك نرى أن منشورات الشاشة ومُدمَّجاتها أَخذتْ تحلّ مَحلَّ الكثير من منشورات الطباعة التقليديّة. ولا يخفى أن المجتمعات المتقدِّمة وعَت هذه القضيّة، فقاربتْها مقاربة عِلميّة وفقًا لأَحكام هذا الانقلاب الحضاريّ الأبيض الذي ابتدأ يُنزل غوتنبرغ عن عرشه فيستبدل بمملكته، التي عمَّرتْ بضعة قرون، نظامًا جمهوريًّا الشاشة، إنْ صحَّ هذا التعبير. بيد أن ذوي الاختصاص لا يتوقّعون أن يُستغنى عن الطباعة التقليديّة استغناءً كليًّا، في المستقبل المنظور على الأقلّ.

س : مَن تحبّ من الشعراء القدامى والمحدَثين؟

ج : الإجابة الوافية لا يتّسع لها المجال في معجَّل هذا الحديث. ولكنْ بالمختصَر أقول إنّني أُحبّ القصائد، لا أصحابها وصاحباتها... وذلك بحسَب ما أكون فيه من حالات

الروح والنفس والجسد، إذ عندي لكلِّ حالة قصيدتُها. ومَن زعم أنه يستطيع أن يعالج، في ضيق الفسْحة هنا، مثْلَ هذا الموضوع معالجةً جِدِّيَّةً، فليتفضَّلْ. أهلًا به ومَرحبًا!

لغة الصحافة والأدب

س : هل تغيَّرتْ لغة الصحافة والأدب في لبنان عمّا كانت عليه قبل خمسين أو ستين عامًا، وكيف تغيَّرتْ؟

ج : أوّلًا: لغة الصحافة شيء، ولغة الأدب شيء آخَر.

ثانيًا: اللغة، صحفيّة كانت أو أدبيّة، لم تتغيَّر أساليبها في لبنان فقط؛ ولكنها تغيّرتْ، أيضًا، في سواه من البلدان، وستتغيَّر وسوف تتغيَّر ما تغيَّرتْ أساليب الحياة، هنا وهناك وهنالك، على مَرِّ الأعوام والأجيال. أمّا في حاضرِ وقتنا، فقد هبَّتِ اللغة تَطيرُ تُسابقُ هرولة العصر، في إيجابيّاتِ الهرولة وسلبيّاتها.

ولا يخفى أن ثقافة اللغة المعاصرة، في تنوّع ميادين الكتابة، قد أثّرتْ فيها عواملُ العلوم الصحيحة ومحدَثاتُها تأثيرًا مباشرًا أو غير مباشر.

س : لغة الصحافة والأدب في لبنان تختلف عمّا هي عليه في مصر أو في المغرب، مثلًا، على الرغم من أن لبنان بلد صغير. ما الذي جعل عربيّة لبنان ذاتَ لون خاصّ؟

ج : اللغة، في لبنان وفي معظم البلدان الأخرى، هي، كالإنسان، سليلةُ الجغرافية والتاريخ.

لبنان، بطبيعةِ جغرافيته وتاريخه، هو جَبلُ تَسلّق، وسهْلُ مَسِيرة، إلى وادي عمْق، وبحرِ انفتاح.

من هنا سجايا التنوّع والتجديد ـ لا الاختلاف ـ في لغة لبنان الذي بأصالةِ أقلامه برهن أن العربيّة هي الجامع الأوّل المشتَرك بينه وبين سائر مَواطن الضاد.

س : إلى أيّ مرجعيّة يمكننا أن ننسب بنْية الأسلوب عند خليل رامز سركيس؟ أأزهريّة هي ، أم إنجيليّة توراتيّة، أم مغربيّة، أم جاحظيّة كوفيّة، أم فارسيّة، أَم، أم؟

ج : إنها، في رأيِ قلمها، بنْية الأسلوب السركيسيّ، المستقلّ ما أَمكن؛ لا أُكثر، لا أَقلّ.

س : ما هي العوامل التي أَثّرتْ في أدبك وثقافتك؟

ج : عوامل التجربة الحيّة، وعوامل المطالَعة اليوميّة، سحابةَ العمر.

س : هجرتَ الصحافة وما خلّفه لك الجدّ والوالد في مؤسّسة **لسان الحال**، فاتّجهتَ إلى الأدب. هل تعتقد أن الأدب والصحافة يمكن أن يتعايشا؟

ج : سؤال قديم. مرارًا طُرح عليّ، ولا بدّ من تكراري الجواب:

معلوم أن كتّاب الصحافة، وخصوصًا في عصرنا السريع التطوّر، هُم، على العموم، غيرُ كتّاب الأدب. الإنشائيّات لم

تبقَ واردة في مفاهيم الصحافة الحديثة. إنما الشأن للخبر، وللمقالة ـ وتوابعها ـ إذ تؤدّى بأسلوب الحاسوب والإنترنت، حاشا الأبحاث وسائر الكتابات الثقافيّة البحت التي حُفظتْ حقوقُها في صفحات معيَّنة وملحَقات منتظمة لها قرّاؤها في كبريات الصحف والمجلّات وسائر المنشورات.

س : أنت، في لبنان، قد تكون آخِر مَن لا يزال يكتب بأسلوب نضر وبلغة هي في غاية السبك والدقّة والإتقان. أسلوب الكتابة، هذا، ما فتئ يخسر، وقد يغيب كلّيًّا. فما السبب؟

ج : أتمنّى ألّا أكون آخِر مَن ينشئ بالأسلوب الذي وصفتَ أو بما يحاكي مدرسته. فإنْ صحّ ما ذكرتَ، كان أنّ الجمال الأسلوبيّ قد يغيب ولو إلى حين، ثم يُبعَث حيًّا في فصحِ قيامةٍ متجدِّدةِ المواسم، بحسب ما سبق قوله.

س : كيف ترى مستقبل اللغة العربيّة في لبنان وسائر دول العالم العربيّ؟

ج : في حضرة المستقبَل، أنا أُمّيّ. لستُ ممنْ يدّعون قراءة المستقبل!

س : هل ترضى عمّا حقَّقتَ؟

ج : أعتقد أن الرضى، على هذا النحو، يُقعِد فيقيِّد، فيعطِّل. فكيف لي أن أرضى؟

س : لو لم تكن خليل رامز سركيس، فمن كنتَ تودُّ لو تكون؟

ج : لم أُقرِّر بَعْد...

اللائحة البيضاء

س : مَن عرفتَ من أهل القلم (أدب، فلسفة، صحافة، إلخ...) في لبنان وسائر الدول العربيّة؟

ج : منذ الثلث الثاني للقرن العشرين إلى أيّامنا هذه، أُتيح لي أن أعرف العشرات من أهل القلم. ويُسعدني أن أُورد أسماءهم في بعض ما يلي وكأنهم ضيوف الذاكرة والذكريات:

خليل مطران، أمين الريحاني، شكيب أرسلان، الأخطل الصغير، مارون عبّود، ميخائيل نعيمة، شبلي الملّاط، ميشال شيحا، أمين نخلة، فارس الخوري، أمين تقي الدين، إبرهيم المنذر، وديع عقل، إيليا أبو ماضي، بولس سلامة، عادل أرسلان، أنطون سعادة، عارف النكدي، جبران الأوّل تويني، أمين آل ناصر الدين، جورج صدّقني، شفيق المعلوف، شارل مالك، عمر فاخوري، موسى الصدر، سعيد عقل، كميل أبو صوّان، توفيق يوسف عوّاد، يوسف السودا، سليم حيدر، مصطفى الغلاييني، شارل قرم، راجي الراعي، الياس أبو شبكة، خليل تقي الدين، ميشال أسمر، جورج مصروعة، ميخائيل جبّور، يواكيم مبارك، أنيس فريحة، محيي الدين النصوليّ، أمين الغريّب، شارل حلو، فيليپ حتّي، صلاح الدين المنجّد، جورج شحادة، غسّان تويني، أحمد عارف الزين، أنطون غطّاس كرم، عمر أبو ريشة، إيلي

تيّان، ميشال طراد، جورج طربيه، ناديا تويني، رنيه حبشي، منير البعلبكي، سلمى صايغ، يوسف غصوب، فؤاد كنعان، كمال جنبلاط، عبدالله العلايلي، صلاح لبكي، خليل حاوي، لويس الحاج، فؤاد سليمان، سعيد تقي الدين، يوسف حبشي الأشقر، أحمد الصافي النجفيّ، طوني شعشع، نقولا فيّاض، سلمى مرشاق سليم، جرجي نقولا باز، فؤاد أفرام البستاني، أسعد عقل، رشدي المعلوف، صبحي المحمصاني، بدوي الجبل، أحمد طالب الإبرهيمي، فؤاد العتْر، سعيد فريحة، توفيق وهبي، كرم ملحم كرم، فريد سلمان، إميل تيّان، جميل مكاوي، نجيب ليان، ڤكتور حكيم، محمد علي الحوماني، بشْر فارس، قسطنطين زريق، محسن سليم، إميل المعلوف،محمد جابر الأنصاري، أنيس الخوري المقدسي، لطفي حيدر، فؤاد صرّوف، يوسف إبرهيم يزبك، إدوار حنين، أحمد مكّي، ريمون عطا الله، إدڤيك شيبوب، أنطون قازان، كريم عزقول، محمد علي فرحات، أمين المعلوف، عمر الزعنّي، وديع فلسطين، جورج شامي، توفيق صايغ، نزار قبّاني، هكتور خلاط، هنري عويس، صبحي الصالح، ماجد فخري، رشا الأمير، محمد النقّاش، أنسي الحاج، صلاح الأسير، رنيه عجوري، بولس نعمان، ليلى بعلبكي، الياس خليل زخريّا، علي شلق، عفيف الطيبي، أدونيس، نصري المعلوف، لويس أبو شرف، نور سلمان، شكيب الجابري، فريدا عبْس، إينيازو سيلوني، سمير عطا الله، جميل

صليبا، أندره شديد، ناصيف نصّار، كامل مروّة، إدوار صعب، ماريتينيانو رونكاليا، جبران الثاني تويني، أمينة السعيد، عبد الله المشنوق، أحمد أبو سعد، باسم الجسر، سليم عبو، زكي نجيب محمود، موريس شهاب، فريد جبر، وديع ديب، إبرهيم وإميل مخلوف، أنطوان تابت، رياض حنين، كسروان لبكي، نسيب زيادة، جواد بولس، عصام كرم، فؤاد مطر، خليل الجميّل، حليم دمّوس، لحد خاطر، وديع البستاني، كلود ضومط سرحال، أمين ألبرت الريحاني، موريس صقر، جوزف نعمة، جبّور عبد النور، سامي الصيداوي، جبران حايك، كمال الصليبي، رياض المعلوف، دعد طويل قنواتي، نجيب الريّس، فؤاد حبيش، رشاد دارغوث، جورج قرم، جهاد الخازن، أنيس صايغ، كارول داغر، غسّان شربل،مانويل يونس، قدري قلعجي، فاضل سعيد عقل، ملحم كرم، سليم نصّار، عارف قيّاسة، مادلين كنعان، جورج عبد الله غانم، بهيج عثمان، سابا زريق، الياس الديري، يونس الأب، سلمى الخضراء الجيّوسي، الياس ربابي، صادق جلال العظم، فؤاد حدّاد، إدمون رزق، جورج نقّاش، أديب نصّور، إبرهيم سليم النجّار، خليل فرحات، عيسى ميخائيل سابا، إميلي فارس إبرهيم، يوسف الخال، عبد الله لحود، أسد رستم، فؤاد الترك، محمد علي شمس الدين، هيام الملّاط، عبده وازن، بدر شاكر السيّاب، إدوار البستاني، سلام الراسي، محمد البعلبكي، حسّان الزين، جورج سمعان، جوزف صايغ، فرج الله الحايك،

مصباح الصمد، بلند الحيدري، محمود شريح، محمد مصطفى العريضي، شوقي أبي شقرا، تركي الدخيل، حسين مروّة، هنري زغيب، كمال اليازجي، يوسف الحوراني، قيصر عفيف، كمال يوسف الحاج، بطرس البستاني، عصام محفوظ، ميشال جحا، سهيل إدريس، سعيد سربيه، إميلي نصرالله، جان دايه، يقظان التقي، محمد النقّاش، بنت الشاطئ، نديم شحادة، جوزف باسيلا، عيسى مخلوف، إبرهيم عبد العال، ألبرت حوراني، نجيب صدقة، شكري قرداحي، إميل مبارك، عجّاج المهتار، منح الصلح، عدلي الحاج، إميل أبو سمرا، جاد حاتم، إبرهيم يوسف يزبك، نقولا زيادة، جبرا إبرهيم جبرا، كرم البستاني، سليمان بختي، جورج ناصيف، عائدة ماريني، نزيه خاطر، سليم باسيلا، سمير صالح، نسيب نجيم، پول شاول، رفيق المعلوف، عقل العويط، جمانة حدّاد.

يبقى أن آخِر مِن عرفتُ ـ عدا السهو والغلط ... ـ هم: سليمان الفرزلي؛ ومِن قبْله: رؤوف القبيسي وأحمد أصفهاني اللذان اقترحا عليّ هذا الحديث.

لائحتي، هذه، البيضاء، عفويّةُ الترتيب، أو اللاترتيب في الأصحّ. أمام تَنوّعِ فئاتها وتعدّدِ طبقاتها، لم أفاضل ولا جادلتُ، بل انقدتُ لما تقع تبعاته على همّة الذاكرة، عندي، وسخاءِ القلم، لا على استسلام الإرادة واسترخاءِ الثمانين.

س : كثيرون كتبوا عنك. مَن منهم صوَّرك كما أنت أو كما تحبّ أن تكون؟

ج : كلّ واحد من أولئك الكرام التقط لي صورة في لحظة من عدسةِ فضْله، ثم أَطَّرَني في موضعِ اختياره. فكان لي من ذلك كلِّه كتابُ **أقوال وآراء في مؤلَّفات خليل رامز سركيس**، (**دار الجديد**، بيروت ٢٠٠٧). فتلقيتُ مجموعةَ هذا الكتاب بالشكر والقدْر والعرفان، على حسب ما تقدَّم لي قوله في مدخل المجموعة.

تعب الراحة

س : في رحلتك الطويلة، وضعتَ سبعة عشر مؤلَّفًا ومارستَ كتابة غلب عليها الجهد والتعب. أيّ كتاب أَحبّ إليك؟

ج : تعبي تعَبُ الراحة. فإن تعذّرتْ عليّ الكتابة، تعبتُ. العمل الذي أريدُ لا يتعبني،ولكن العمل الذي لا أريدُ يتعبني فأشقى. ولو افترضنا أنني أتعب، أحيانًا، في العمل الذي أريدُ، فإنّما ذلك لكي أُريحَ النصَّ الذي أَكتب.

أمّا أَحَبّ مؤلَّفاتي إليّ، فهو المؤلَّف الذي لم أَكتبه بَعْد والذي أُمَنّي النفس بأن أَكتبه يومًا ما.

استحقاق يوميّ

س : كتبتَ مرّة أنك تحاول أن تستحقّ لبنان. هل تغيَّرتَ وهل تغيَّر لبنان؟

ج : لبنان، عندي، استحقاقٌ يوميّ لوطن لا يفتأ يتطوّر ويتغيَّر إيجابًا وسلبًا في مدى جغرافيّةِ تاريخه الدهريّ. «لبنان توتّرٌ دائم؛ المهمّ أن لا نقطع الوتر»، كما في مأثورةِ صديقي جورج خضر، وقد طالما تذكَّرتُها فذكَّرتُ بها.

الإنسان، أيًّا كان، يتطوّر ويتغيّر. أنا إنسان، فكيف لا أتطوّر ولا أتغيّر؟

س : اللبنانيّون نجحوا كأفراد في كلّ بلد ارتحلوا إليه. لكنهم عجزوا عن أن يخلقوا وطنًا متجانسًا. أهي لعنة الجغرافية، أم لعنة التاريخ، أم هما اللعنتان؟

ج : أوّلًا أفضّل أن نستغني عن مَقولة «اللعنة»، لأنها أَجنبيّة عن طبيعة لبنان وإنسانِ شعْبه. معضلةُ لبنان التعدّد والتنوّع بلا توحّد. هكذا كان. هكذا أخشى أن يبقى. أإعجازُ الكيان هذا؟ ربما. أإعجازُ السكّان؟ ربّما. أإعجازُ الطائفيّة، خطيئتِنا الأَصليّة التي وُلدنا فيها؟ ربّما. فما البديل فعلًا لا رصْفَ كلام؟ لست أدري. أمِن أحدٍ يدري حقًّا؟

مجموعة الثلاثيّة والرباعيّة وهيكلها

س : يقول أدونيس في أدب خليل رامز سركيس: «الكلمات، عنده، إنشاد في قدّاس العالَم. ونشعر أن الله يقيم على طرفِ ريشته إقامته في فكره وقلبه.» أيّ رسالة أردتَ أن تكرز بها؟ وما هو مذهبك الروحيّ والسياسيّ والفلسفيّ؟

ج : «الرسالة» مَقولةٌ لا أجيز لنفسي أن أدَّعيها. حسْبي أن أكون قلمًا مِن أُسرة الكلمة بما في صميم الكلمة من مسكونيّةٍ روحيّة وسياسيّة وفلسفيّة اجتهدتُ أن أفصح عنها في ثمانية مؤلَّفات ينبئ عن كلٍّ واحد منها عنوانه، وهي:

ثلاثيّةُ **أيّام السماء** التي تبني **أرضنا الجديدة** التي يتشوَّف لها **مصير** ينطلق من مَواطن الثلاثيّة إلى رباعيّة العناصر، ماءً وترابًا ونارًا وهواءً؛ وترمز إليها، هنا، مؤلّفاتي **جعيتا والتراب الآخَر وزمن البراكين وأَسير الفراغ**. تلك العناصر تكوِّن مجموعتُها الهيكل الذي رمزتُ إليه بمؤلَّفي **زواج مَدَنيّ**[1]، أي زواج بَعْل الإله وبَك المدينة.

طُموح هذا الزواج، ابنِ العناصر الأربعة، أن يبني الهيكل، في مخيَّلةِ بعلبك، مثلًا، على رجاء المستقبل، كما ورد في آخِر الكتاب:

بَعْل (مخاطبًا بَك) ـ يدي إلى المستقبل في يدكِ، نصنعه، نحيا به، نكون فيه، نؤدّيه.

بَك ـ نؤدّيه كما لا ينبغي أن نؤدّي. يومئذ نؤدّيه نقول الحق.

بَعْل ـ نقول الحق إذن نموت.

---

(١) الكتب الثلاثة الأولى، منشورات **الندوة اللبنانيّة**، الكتب الخمسة الأخرى، منشورات دار **الجديد**، بيروت.

بَك ـ ألا تموت الكلمات حين تُقال؟

ثم يُختَم بما يلي:

هوتْ فانفجرَتْ طائرة مروحيّة في حرم الهيكل الذي كان في مخيَّلة بعلبك. هُدم الهيكل. تحطّمت الطائرة. بين الحطام والأنقاض جثّتا امرأة ورجل عُثر في جيبه على هذه المكتوبة:

انتحار

النهر

ألقى نفْسه

في البحر.

٣٠ سنة غياب عن لبنان

س : ما دمنا في جوّ بعلبك ولو خيالًا، فلمَ لا نعود إلى ذكر لبنان: هل تذهب إلى لبنان من وقت إلى آخَر؟

ج : أَعترف بأني لم أذهب إلى لبنان، في خلال الثلاثين سنة الأخيرة، إلّا مرّةً واحدة لم تجاوز عشرة أيّام. وكان غرضُ الزيارة أن أجدِّد جواز السفر اللبنانيّ في طبعته الجديدة، لأنُ القنصليّات اللبنانيّة ليس لديها الوسائل التقنيّة اللازمة لإصدار هذا الصنف من الجوازات العسيرة التزوير. كلُّ ما يسع قنصلياتنا عمله، في هذا الشأن، هو أن تمدِّد جوازات السفر القديمة سنةً واحدة قابلة للتمديد سنةً ثانية، فثالثة... إلى آخِر مهزلةِ الفوضى والتقصير! المؤكّد أن السلطات المسؤولة تَلزم

صمْتَ الجمود برغم تكرار الإلحاح عليها لكي تهتزّ. فهل وراء ذلك مَوقف سياسيّ؟

نهضة الترجمة في لبنان

أتاحت لي الأيّام المعدودة التي قضيتُها في لبنان، أن أتّصل ببعض الأقارب والأصدقاء. وكان ممّا سُررتُ به في بيروت زيارتي مدرسة الترجمة في جامعة القدّيس يوسف، في مبانيها الحديثة، في شارع الشام. وذلك بأني أحترم مدير المدرسة هنري عويس وأُسرتها التعليميّة التي تنهض بعمل كبير يخدم الثقافة المتعدِّدة اللغات خدمةً انتشرتْ فوائدها في عدّة بلدان من مسكونيّةِ الكلمة. فكأن الترجمة أَخرجت الإنسان من برج بابل.

وما دمنا في عالَم الترجمة، فإنّي أنوّه بالترجمة الفرنسويّة لرواية رشا الأمير يوم الدين، وقد تولّى ترجمتَها يوسف الصدّيق. (عنوان الرواية المترجَمة:

Le Jour Dernier/Confessions d'un Imam; Editions Sindbad, Actes Sud, Paris 2009.)

وجدتُ هذه الترجمة موفَّقةَ الأمانةِ وحُسْنِ التأدية. لم أشعر، وأنا أقرأها، بأني أَنتقل من لسانِ حضارة إلى لسانِ حضارةٍ غريبةٍ عنها إلى حدّ بعيد.

س : قيل إنّ أجمل الأدب هو العصيّ على الترجمة إلى لغة أخرى. هل تعتبر أدبك من هذا النوع؟

ج : الواقع أنه كلّما تأصّلَ النصّ، صعبَ نقلُه من لغته الأُمّ

إلى لغة أخرى، وخصوصًا إذا تباعدتِ اللغتان. لكن الصعوبة ليست في المستحيل بقدْر ما هي في إرادة التغلّبِ على المستحيل. مَثلُ ذلك أن المستشرق ڤانسان مونتاي Vincent Monteil ترجم نصًّا مِن بعض مؤلَّفاتي سبقَ أن ترجمه كاتب آخر. فكان مترجَم مونتاي حيَّ التقيّد والتحرّر معًا. أمّا الترجمة الأخرى، فقد استعبدها الأصل، فلم أوافق عليها.

ثم إن الترجمة هي، في بعض أحوالها، شَجاعةُ تصرُّفٍ وإعادةُ خَلْق في جِدٍّ بَدْع وصنْع ربّما لَقيتُهما في ترجمتي لهذه الجملة الإنكليزيّة:

At midnight midday is born.

في رأيي أن الانتقال بهذه الجملة إلى اللغة العربيّة يستدعي، مع الأمانة للأصل، شيئًا من توازن اللفظ وتركيب العبارة. وهذه الترجمة هي:

نصْفَ الليل يولَدُ نصفُ النهار.

لقد بلوتُ الترجمة في ثلاثة أعمال، كما ذكرت في حديث سابق.

الاعترافات تأليف جان جاك روسّو؛ **بدايات الخليقة** تأليف رينه حبشي؛ **الزنوجة** تأليف ليوپولد سدار سنغور.

هذه الترجمة المثلّثة أكسبتني القدرة على أن أواجه أعصى النصوص ترجمةً فلا أزالُ بها حتى أؤدّيها على أفضل المستطاع.

س : هل عندك ذكريات لبنانيّة وطنيّة وذكريات شبْه خاصّة؟

ج : عندي، في مستودَع الذكريات، ألوان منها تلْو ألوان.

أوّلُ ما يحضرني منها، الساعةَ، هو كيف كان المفوَّض السامي الفرنسويّ «يُعيِّن» ويُقيل رؤساء الجمهوريّة والدولة في لبنانِ زمنِ الانتداب، وهم، على التوالي، بين ١٩٢٦ و ١٩٤٣: شارل دبّاس، حبيب السعد، إميل إدّة، ألفرد نقّاش، أيّوب ثابت، پترو طراد، بشارة الخوري. ومِن أطرف أخبار الإقالة والتعيين أنه بينما كان أيّوب ثابت، رئيس الدولة، يزورنا في مصيفنا، في عاليه، في ١٣ تموز ١٩٤٣، إذا بنا جميعًا ـ أيّوب ثابت وأبي وأمّي وأنا ـ نفاجأ بخبر سمعناه من إذاعة راديو الشرق في بيروت وهو أن أيّوب ثابت قد أُقيلَ من منصبه بمقتضى مرسوم أَصدره المندوب الساميّ الفرنسويّ جورج كاترو! كان ثابت على خلاف مع كاترو ومع المندوب الساميّ البريطانيّ إدورد سپيرز حول مشروع قانون الانتخابات النيابيّة المقبلة. وسمعنا من الإذاعة، في الوقت نفسه، نبأَ تعيين كاترو لپترو طراد رئيسًا للدولة خَلفًا لأيّوب ثابت، إلى أن انتُخب بشارة الخوري، في ٢١ أيلول ١٩٤٣، رئيسًا للجمهوريّة اللبنانيّة؛ فما لبث أن كلَّف

رياض الصلح تأليف الوزارة، فألّفها. فنشطتْ تنفّذ البرنامج الاستقلاليّ الذي على أساسه اختار الشعب ــ وبعضُ الدول الكبرى ــ رجالات البلاد.

لكنْ ما إن بلغَ المفوَّض السامي الفرنسويّ، هِيللو، ما شرعتِ الدولة اللبنانيّة تنفّذه على هذا الصعيد، حتى هبَّ فثار، وقد تعتعه السكْر بحسب ما قيل. فأَمرَ باعتقال بشارة الخوري وكميل شمعون، ورياض الصلح وعبد الحميد كرامي وسليم تقلا وعادل عسيران، وبسَوقهم، ليلًا، إلى قلعة راشيا. فسُجنوا هناك من ١١ إلى ٢٢ تشرين الثاني ١٩٤٣ كما هو معلوم.

أمّا ما لا يعلمه إلّا الأقلّون، فهو أنه، في ساعة مبكّرة من صباح يوم الاعتقال، قام القائد العسكريّ الفرنسويّ لمنطقة بيروت بزيارة رئيس الدولة الأسبق أيّوب ثابت، فأَعلمه بما حدث. ثم أضاف أن المفوّض السامي عيَّن إميل إدّة رئيسًا للدولة. ففوجئ ثابت وسأل الضابط هل وافق إدّة. فأجابه أنْ نعم. فقال ثابت ما هذا مختصَره: ليتكم أعلمتموني قبلما اتصلتم بإميل إدّة. إن إدّة قيمةٌ لبنانيّة عزيزة جدًّا؛ لكنه شديد الكره لبشارة الخوري حتى إنه يجازف بنفْسه ليُسقط بشارة الخوري عن سدّة الحكم فيَحلّ هو محلَّه. لو لم تتسرّعوا إلى ترئيسكم إدّة، لكنتُ أشرتُ عليكم بتعيين قائد عسكريّ فرنسويّ حاكمًا موقّتًا. فإنْ نجحتْ محاولة هذا الانقلاب، فاوضتم المعتقَلين في راشيا؛ والمرجَّح أن تنتهي الأزمة، عندئذ، إلى حَلّ وسَط لعلّه يكون كما يلي:

١ ـ موافقة بشارة الخوري وحكومة رياض الصلح على الاستقالة؛

٢ ـ عزْل الضابط الفرنسويّ ونقله إلى وظيفة في السنغال مثلًا؛

٣ ـ انتخاب النوّاب إميل إدّة رئيسًا للجمهوريّة؛ فيكون إدّة حلًّا للأزمة بدلًا من أن يزيدها تعقيدًا. وإدّة يصغي، عادةً، إلى نجله ريمون وإليّ؛ وكثيرًا ما عدَّل بعض مواقفه نزولًا منه على رأينا، نحن الاثنين، دون أن يتساهل في تمسّكه بكلّ ما يَضمن كيانَ لبنان ١٩٢٠؛ وفي الوقت نفسه يوافق إدّة على بعض المطالب الاستقلاليّة التي شرعتْ حكومة رياض الصلح تلبّيها، كتعديل الدستور، واعتماد العربيّة لغةَ لبنان الرسميّة، وجلاء الجيوش الأجنبيّة، وتسلُّم المصالح المشترَكة التي يتولّاها حكمُ الانتداب، إلخ.

وختم أيوّب ثابت «نصائحه» بما هذا معناه: تجاه الأحوال الداخليّة والإقليميّة والعالميّة السائدة، لا غنى عن المرونة الدبلوماسيّة الحكيمة. لا مجال، هنا، للقوّة. القوّة، في لبنان، لا تصنع شيئًا يدوم.

رياض الصلح يتنبأ باغتياله

ومن الذكريات التي يصعب عليّ أن أَنساها أنه، قبْل اغتيال رياض الصلح ببضعة أيّام، في تمّوز ١٩٥١، صادف عيد

الأضحى. كنّا في المصيف في عاليه، وكان منزلنا على مقربة من دارة رياض الصلح. فتوافد عليه جمهور من المهنّئين جمٌّ غفير كنّا، أبي وأنا، في عداده، والصلح يومئذ خارجَ الحكم، لخلافٍ شجَرَ بينه وبين بشارة الخوري. فقال له أبي: «ما شاءَ الله! ما شاءَ الله! ما أَكثرَ المهنِّين!» فابتسم الصلح ابتسامة كبتتْ شيئًا من التوقّع غير المطْمئنّ وقال: «ما عادت حرزانه يغيِّروا.» فما مرَّتْ بضعة أيّام حتى اغتيل رياض الصلح في عمّان، مع أن حرّاسه كانوا مِن أوفى المخلصين له ومِن أَقدرهم محافظةً على سلامته، وهم عصبة من شجعان آل عَرَب: سعْد وعثمان وبعض أنسبائهما البواسل؛ ولكنْ أيِن مَفرّ مِن القدَر؟

جامعة بيروت العربيّة

س : قيل لي إن لديك قصّة عن تأسيس جامعة بيروت العربيّة؛ فما هي؟

ج : الواقع أن لتأسيس جامعة بيروت العربيّة قصّة طريفة. وتلك أن ثلاثة من وجهاء منطقة الطريق الجديدة وتوابعها ومن أعمدة جمعيّة البرّ والإحسان البيروتيّة وهم: جميل الروّاس وراشد الحوري وإسماعيل الشافعي، قاموا، في أواسط القرن الماضي، يطالبون الحكومة اللبنانيّة بتأمين الاعتماد الماليّ اللازم للمدرسة الرسميّة هناك. وكان عبد الله اليافي، رئيس الحكومة

يومئذ، قد وعدهم بتلبية الطلب. لكن الحكومة تباطأتْ، ثم تباطأتْ بالرغم من تكرارهم التذكير لرئيسها بما وعدهم به. فاستاء الوجهاء الثلاثة الذين كان يُبلغهم سوءَ أحوال المدرسة معلّمان فيها هما محيي الدين وعبد الحميد فايد. فاتّصلوا بسفير الجمهوريّة العربيّة المتّحدة عبد الحميد غالب وعرضوا عليه المسألة. فكان أن جمال عبد الناصر، هو نفْسُه، أمر بتلبية الطلب. فوصَل المال في الحال، على أن يصبح اسم المدرسة الرسميّة **جامعة بيروت العربيّة**. فوافقوا، وشكروا بَعْدما قدَّروا تبعات هذا التغيير.

التصوّف في برنامج البكالوريا

س : هل عندك أخبار أخرى من هذا «النوع»؟

ج : عندي عدّة أخبار أذكر منها، الآن، أن أحمد طالب الإبرهيمي، وزيرَ التربية والثقافة في الجزائر والرقمَ ٣ في عهد بُومدْين، زار لبنان سنة ١٩٦٧ تلبيةً لدعوة من الحكومة اللبنانيّة. وكان الوزيرُ الضيفُ صهرًا للأسرة البيروتيّة الصديقة، أُسرة آل حوري. وكانت **الندوة اللبنانيّة** قد دعت أحمد طالب إلى إلقاءِ محاضرة في قاعتها بشارع بشارة الخوري؛ كما أن ميشال أسمر، مؤسّس **الندوة**، أعدَّ للضيف الكبير برنامجًا ندويًّا خاصًّا يليق بكفايته ومقامه.

كان عنوان المحاضرة: .Albert Camus vu par un Algérien

وذلك أن أحمد طالب كان يجيد اللغة الفرنسويّة أكثر مما يجيد العربيّة. فدعيتُ إلى لقائه قصْدَ أن أترجم المحاضرة إلى العربيّة. وسبقَ اللقاءَ غداءٌ تكريميّ أقيمَ له في فندق البريستول وحضره بعض رؤساء الجامعات والمعاهد الثقافيّة، فضلًا عن سفراء الدول العربيّة، وكان بينهم عبد الحميد غالب سفير الجمهوريّة العربيّة المتحدة، ومستشاره الصحفيّ النافذ أنور جَمَل. فبينما كنا نتناول الطعام، دار الحديث على تعديل في برنامج البكالوريا اللبنانيّة. فقال زكي النقّاش، مدير كلّيّة المقاصد الإسلاميّة في بيروت: «خلصْنا من الصوفيّين، حذفناهم من برنامج البكالوريا». فما كان من فؤاد أفرام البستاني، رئيس الجامعة اللبنانيّة، إلّا أن سأله عن سبب هذا الإلغاء.

فقال زكي النقّاش إن الصوفيّين تغنّوا بالعزّة الإلهيّة فيما كان الصليبيّون يحتلّون الأراضي المقدَّسة ويستعمرونها. فسأله البستاني عن العلاقة بين الحروب الصليبيّة والصوفيّين. فقال النقّاش إنّه كان يجب على الصوفيّين أن يتغنّوا بالأراضي المقدَّسة فتصل صَلاتُهم رأسًا إلى الله. فاحتدم الجدل بين الرجلَين، وكاد يتلبّد جوُّ الوليمة. فدخَل السفير غالب في الموضوع فقال لزكي النقّاش: «يمنع إيه تعرِف عدوَّك؟» فهدأ النقّاش فورًا وسكت. فانتهزها البستاني فرصة فقال للنقّاش:

«الآن وصلتْ لك من سعادة السفير ڤيزا السكوت!» فبقي النقّاش ساكتًا حتى آخر الوليمة.

بعلبك خارج المهرجانات العالميّة

س : ما كانت علاقتك بمهرجانات بعلبك؟

ج : لم يكن لي علاقة بها مباشرة، ما عدا صداقتي لمعظم أعضاء لجنتها. وجُلُّ أمري فيها هو أن صديقي القديم كميل أبوصوّان، الذي كان أوّل مَن كُلِّف إعدادَ الكتاب السنويّ لمهرجانات بعلبك، اقترح عليّ أن أتولّى إعداد القسم العربيّ من هذا الكتاب، بينما يتولّى هو إعداد القسمَين الفرنسويّ والإنكليزيّ؛ فأَتحف لبنانَ مجموعةَ مجلَّدات عالميّة المستوى.

ثم إنه، سنة ١٩٦٣، بلغ لجنةَ مهرجانات بعلبك أنّ دُني دو روجمون، الفيلسوف السويسريّ، قادمٌ إلى لبنان لمهمّة ثقافيّة وأنّني على برنامج زيارته. فرغبتْ إليّ رئيسة اللجنة في أن أُهدي له كتب السنوات المهرجانيّة السابقة، فضلًا عن الكتاب السنوي الجديد. فقدّمتُها له نيابةً عن رئيسة اللجنة ليلةَ اجتمعنا، عندنا في البيت، على عشاء خاصّ لم أدْعُ إليه إلّا جورج نقّاش، أحد مؤسِّسَي جريدة **لوريان** والصديق الحميم لدو روجمون. فشكر لي التقدمة وذكر أنه سيوجِّه إلى رئيسة اللجنة رسالة شكر وإعجاب. ثم نظر إليّ فابتسم وقال ما هذا مؤدّاه: فهمتُ المقصود بهذا الإهداء: لجنة مهرجانات بعلبك

تودّ لو أن اللجنة العليا للمهرجانات العالميّة توافق على رغبة لبنان في ضمّه إلى عضويتها، فتُدخَل برامجُ مهرجانات بعلبك إدخالًا تلقائيًّا سنويًا في البرنامج العامّ العالميّ للجنة العليا. معلوم أن لجنتنا، هذه، العليا التي لي شرفُ رئاستها، قوامُها عنصران: الفنّ والمال. الفنّانون، عازفين وممثّلين وراقصي باليه وسواهم، أكثرُهم من الطائفة اليهوديّة الوثيقة العلاقات بإسرائيل. أمّا المال، مال لجنتنا، فهو مالٌ عربيّ المصدر يصل لنا، كلَّ سنة، من بعض الدول العربيّة التي اشترطتْ علينا أن لا نضمّ إسرائيل إلى لجنتنا. فإنْ أدخلْنا لبنان، قاطعَنا الفنّانون. وإنْ أدخلْنا إسرائيل، انقطع عنّا المال. لذلك قلنا للبنان: لا، وقلنا لإسرائيل: لا. واتّضح لنا أن الدول المموِّلة لا يهمّها أن يكون لبنان في اللجنة العالميّة العليا بقدْرِ ما يهمّها أن تبقى إسرائيل خارج اللجنة.

وطلب إليّ دو روجمون أن أُطلِع على هذا الأمر لجنة مهرجانات بعلبك.

محمد عبده وإبرهيم اليازجي

س : محمد عبده وإبرهيم اليازجي ماذا لديك عنهما؟

ج : في ملفّات خليل سركيس، جَدّي، أن محمد عبده، بَعْدما نُفي من مصر فرحَلَ إلى فرنسة، انتقل منها إلى بيروت في أواخر القرن التاسع عشر؛ وكان كثيرًا ما يتردّد إلى لسان

الحال إذ وصلته بجدّي صداقة قديمة. فرحّب به جدّي، وأكرمَه، وأشعره بأنّه في وطنه وبين أهله؛ حتى إذا استقرّ بمُقامه البيروتيّ، فاتحه جدّي في مشروع طالما فكّر فيه، فقال له ما هذا مختصَره: أودّ لو تُشْرف على تحقيق **نهج البلاغة**. فما رأيك؟ المستحبّ جدًّا أن يتولّى شيخ سنيٌّ وعالِمٌ جليل تحقيق كتاب الإمام الأكبر عليّ بن أبي طالب، وخصوصًا أنني أتوقّع أنْ ستصبح، في يوم ما، مفتي الديار المصريّة. هكذا تكون قد شاركتَ في تعزيز روح الأخوّة والوفاق بين المذهبَين مِن أجْلِ خير الجميع مسلمين ومسيحيّين. فأصغى محمد عبده إلى جدّي ، فشكره شُكرَ الموافقة والارتياح. ثم دأَب في العمل إلى أن أتمّه، فأَصدره جدّي في منشورات **المطبعة الأدبيّة - لسان الحال**.

أمّا إبرهيم اليازجي، فقد وصلته بجدّي صداقةٌ موروثة. فكلّفه جدّي، إذ كان اليازجي جميلَ الخطّ، أن يَرْقم حروف مسبك **سركيس للحروف العربيّة**. فرقَمَها بالخطّ النسخيّ والرقعيّ والثلثيّ والفارسيّ، ولم يَفتْه أن يَرْقم النقطة والحرَكات.

ذلك من حيث الخطّ. أمّا في ما يجاوز فنّه، فقد تبيّن لي، من خلال قراءتي لكتابات إبرهيم اليازجي ولكتابات أحمد فارس الشدياق، أن العناية اليازجيّة باللغة العربيّة ودقائقها ربّما كان في رأسِ أسبابها الحربُ الكلاميّة التي نشبتْ بين القلمَين المعلّمَين بعدما تعمّد الشدياق أن ينتقد ناصيف اليازجي انتقادًا

لاذعًا، شديدَ العنف. فهبّ إبرهيم اليازجي يدافع عن أبيه ويثأر بمنتقده. لكن اليازجي الابن، تروّى، في أوّل الأمر، وقد آثَر أن يتعمَّق في أصول العربيّة ومشتقّاتها وسائرِ أبوابها قبْل أن يردّ على الشدياق. وكان النقد، في عصرهما، أَقرب إلى أسلوب السّيف والترْس منه إلى موضوعيّة الدراسة والبحث.

والمرجَّح، عند الأَغلبين، أن إبرهيم اليازجي مَدين لتلك المعركة اللغويّة التي أَوجبتْ عليه أن يتأَهَّب لها قبلما نازل خصمه الشهير.

بيد أن آية أعمال إبرهيم اليازجي، فضلًا عن **لغة الجرائد** وتوابعها، هي، في نظري، صياغته العربيّة للمزامير، (طبعة الآباء اليسوعيّين)؛ واسمُها في «قاموسي» الخاصّ: مزامير اليازجي.

مرآة الحقيقة

س : في الختام، ماذا تقول؟

ج : أَختم، تخفيفًا منّي عن القارئ الصديق، بمقطَّعاتِ نصٍّ كتبتُه سنة ١٩٣٨، ثم أدرجتهُ في مؤلَّفي **من لا شيء**، سنة ١٩٥٨:

قصّة حمار

كان ذلك في أيّام المدرسة، وكنّا في صف البيان. فطلب إلينا المعلّم أن يختار كلّ منّا قطعة لأُديب عربيّ معاصر بدلًا من فرض الإنشاء، على أن تُعطى القطعة الفضلى جائزة الأدب

السنويّة، ثم تُتلى في الصف، فكأنها مباراة بين صفوة من الأدباء لا بين طائفة من التلاميذ... فانتقى كل واحدٍ منا قطعة أدبيّة وجاء بها إلى أستاذه. وكان عنوان قطعتي **قصّة حمار**.

ولا أدري لمَ وقعتْ **قصّة حمار** موقعها من نفس المعلّم، فاستحسنها وسُرَّ بها، وخصّها بالجائزة. وكنتُ قد نسبتها إلى المازني بحسب وصيّة الجاحظ بالتنكّر... على كونها ليست للمازني بل هي للكاتب الذي تقرأون...

وقد بلغ إعجاب معلّمنا بالحمار وقصّته كلَّ مبلغ. فطفق يسهب في تبيين محاسن هذه القصّة التي لا تشبه القصص في شيء، ويستخرج منها معاني لم تعنّ لمؤلّفها قطّ، ثم يحثّ التلاميذ على تحقيق النظر فيها، إلى أن قال: «أوجزوا تُبْلغوا، فربَّ صفحةٍ أغنت عن كتاب». ثم هنأني بحسن ذوقي واختياري ودعاني إلى إلقاء القطعة في الصفّ، وحذّرني من اللحن احترامًا للمازني...فوقفتُ يومئذٍ وتلوت قصّتي، بل قصّة حماري...بين ضحك التلاميذ ومرحهم. قلت: كان عندنا، في البيت، حمار صغير بالغنا في تدليله، فخصصناه بغرفة وفراش! فكان إذا استلقى، طاب له أن يرفع قوائمه، ويسترسل في شهيق طويل...فبينا كان يومًا في الدار بدا له أن يقف أمام المرآة، فأبصر فيها أخًا عنيد الرأس، مرتفع الأذنين، ذليل العنق، مُسرَّح الذيل، أبيض. فساورته الشكوك... وما زال يلبط أخاه، ويتمرّغ على حطام المرآة، حتى أثقله التعب، وأثخنته الجراح،

فهلك لساعته وهو مطمئنّ إلى أنه قد تغلّب على خصمه... ولم ينتقل أحد منّا إلى غرفة الحمار، بل تركناها للضيوف...

قال الجاحظ: «إن النادرة الباردة جدًّا قد تكون أطيب من النادرة الحارّة جدًّا، وإنما الكرب الذي يخيّم على القلوب، ويأخذ بالأنفاس النادرة الفاترة التي لا هي حارّة ولا باردة. وإنما الشأن في الحارّ جدًّا أو البارد جدًّا». فإن تكن قصّة الحمار على شيء من الفتور، فلأن بطلها، لا راويها، طويل الأذنين ولا فخرا

تلك قصة حمارنا، وأغربُ ما كان منها أن معلّمنا ـ سامحه الله ـ لم يفطن للمغزى الذي تضمّنته، كأنّه شُغل عنه بموت الحمار، فمرَّ بالمغزى مرّ التلاميذ، وغاب عنه أن الفكرة المعنيّة هي أن الحمار متى أدرك أنه كذلك، لم يُطق العيش، فانتحر بالمرآة: مرآة الحقيقة التي تجرح... أو ربّما آثر معلّمنا السلامة، فسكت عن المغزى خوفَ أن يؤدّي شرحه في الصفّ إلى بعض حوادث الانتحار...

إلـخ...

مَداخل ورسائل منوَّعة

واجب وطني
فلسطين ميشال شيحا

ميشال شيحا من أَوائل الذين وعَوا، منذ أَربعينيّات القرن الماضي، أَن قضيّة فلسطين أَكبَرُ من فلسطين ـ أَكبَرُ تاريخًا وأكبَرُ جغرافيةً. فقارَبَها، على هدي ذلك، مقارَبةً تضمَّنَتْ، في ما تضمَّنَتْ، صفحاتٍ من عمقِ رؤياه الغَدَويَّةِ الأَبعاد.

فلمّا توفّي ميشال شيحا سنة ١٩٥٤، قَبْلما ازدادت القضيّة الفلسطينيّة تأزمًا فأصبحتْ معضلةً عالميّة، كانت كتاباته فيها شبْهَ نُبوءَةٍ عنها، إذ تَوقَّعَ غوائلَ الحروب وسائرِ البراكين التي فجَّرتْها معضلةُ فلسطين في أَعوامنا الخمسين الأَخيرة فضربتْ كثيرًا من البلدان المجاورة والبعيدة ضربًا مباشرًا أَو غيْر مباشر.

مدخل كتاب فلسطين تأليف ميشال شيحا، الترجمة العربيّة: نبيل خليفة، منشورات دار النهار ومؤسسة ميشال شيحا، بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٣.

وكم كان لدينا عنها في لبنان من أَخبارِ يقينٍ وفواجعِ اختبار!

ولو عاد إِلينا ميشال شيحا في أَلفيَّتنا هذه الثالثة فعاينَ فعانى ما لا ينفكّ يضطرب في المشارق والمغارب من خَلْفيَّاتِ فلسطين ومن مخلَّفاتها، لَما فجأَتْه أَحدَاثُها، بل ربّما وجد رؤياه قد تحقَّقت كوابيسُها مرحلةً فمرحلة، فأمست حالاتُها على أَسوإٍ تَفاقم. وربّما تبيَّن له أَن خوفه على بعض المستقبل، ومنه، خوفٌ مُسَوَّغ. وذلك بأَنَّ شيحا كان في طليعة الذين استوعبوا مخطّطات إسرائيل ـ إسرائيل الكبرى ـ، فاستنطقوا تاريخها في ماضيه وحاضره وفي سواد زمنه الآتي.

وربّما خُيِّل إلى بعضهم أَنَّ مُرشِدَهم كان يردِّد: «أَنْجَسُ شيءٍ وأَقدَسُ أَرض.»

فمِن أَجْلِ ذلك كلّه حقٌّ للعربيّة على ميشال شيحا ـــ ما أَمْكَنَ ـــ أَن تترجَم إليها مؤلَّفاتُه كتابًا فكتابًا، فيتاح لها القارئ الذي قلَّما يقع على مثْلها في لغته الأُم.

أَليست الترجمة، هنا، واجبًا وطنيًّا؟

رسالة إلى جورج شامي

قاتِلُ التنّين و ... قتيلُه!

لندن في ٢٨ آب ٢٠٠٤

عزيزي جورج شامي،

فرِحْتُ بكتابك الجديد **ماذا بقي من القتال؟** وإن كان جوُّه لا يُفرِح. الكتاب، وهو من سلالةِ الحرب في زمنِ اللاسِلْم، صَهَرتْه نارُها؛ لكنها ــ إلى يومنا على الأقلّ ــ لم تقوَ على رأسِ موضوعه: شَعْبِنا حيًّا ولو تحت التراب. حربُ لبنان ــ حربُ سوانا عندنا، فَعَلَيْنا، ثم حربُنا على أنفُسنا ــ طعنُ خنجر لا بطولة سَيف إلّا في بعض مَواقف الشهادة والنضال.

كتابك، مِن خلالِ فِطرته الساميّة، اجتمع فيه الدِينُ والدنيا مِلءَ كاتدرائيّةٍ عميقةِ المعاني بُنِيَتْ في ساحة الشهداء، في

ماذا بقي من القتال؟ رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت، ٢٠٠٣.

بيروت، على اسمِ القدّيس جرجس قاتلِ التنّين. الكاتدرائيّة، هنا في كتابك، رمزٌ للبيت الروحيّ والزمنيّ، حصنِ الوطن المرتجى، على ما يضطرب فيه لبنان مِن آفاتِ التخريب والتدمير. ولئن كانت هذه الكاتدرائيّة قد رُمِّمَتْ بَعْد جوائح الحرب، فإنّ الوطن الذي ترمز إليه، تَعذَّرتْ، إلى الساعة، أعمالُ تنشئته من الداخل، فاكتُفِي بإعادةِ البناءِ على السطح ـ سطحِ الأرض وسطحِ الإنسان. أمّا الصميم، صميمُ البشرِ والكيان، فهو مَشهَدٌ أشلاء فوق أشلاء. القِيَمُ التي لا معنى للحياة بدونها، مُعظمُها تحت الأنقاض. غيابُ القيَمِ أو، في الأصحّ، تغييبُها هو ممّا يحبس لبنان عن أن يكون دولةً، مع كلِّ ما يُدَّعى ويُدْعى له مِن مسرحيّاتِ دولةِ القانون والنظام وسائرِ معزوفةِ الكلام الفارغ. فصدَقَتْ، هنا أيضًا، مأثورةُ التاريخ: «...وأنتم جعلتموه مغارةَ لصوص.»

عزيزي جورج،

التذكارات الكاتدرائيّة، في مَدى كتابك، يتنازعها إجمالُ يُسْرِ ما قبْل الحرب وشيوعُ فَقْرِ ما بَعْد الحرب. وربّما غلب على صفحاته المئة والخمسين تَداعي الخواطر من النحو المجاوِر ومن آفاق التقصّي. فتفاعلتْ في مراحلِ قصّتك المَشاهدُ الاستغفاريّة التي توالت عليك في أوانها والمَشاهدُ القتاليّة التي تَقدَّمَ لك أن تَقلّبتَ على لظى حوادثها ـ وأحداثها. فكنتَ في سماويّاتِ الكاتدرائيّة تارةً، وتارةً في

جهنّمياتِ الحرب؛ حتى إنك صرتَ الحالتين جميعًا بلا انفصامِ الدِين ـ دِينك ـ عن الدنيا. الصيرورة عندك نفْسيّة وجسديّة. مصيرُك، هنا وثمّت، موصول بالإيمان وبالجحود ولو فزعتَ إلى الكاتدرائيّة ورموزها؛ كأنّ القدَر اختار بعضَ أهلِ القصة في الكاتدرائيّة وفي خارجها لكي يضحُّوا. فقلتَ: «التضحية حتى الاستشهاد هي الهدف الذي يجمعنا.» إلّا أنه، بحسبِ تعبيرك، استشهادٌ أنانيّ ينكر حقوقَ غيره، يعلن أنْ «لا شريعة فوق شريعته هو الخاصّة به. [...] فقانون هذا العالم ليس إلّا قانون القوّة.»

حيال رؤيا الدمار تختلط الأشياء كلّها. يتداخل الحبّ والموت والإثم والضمير وما إلى ذلك وما عنه. الوطن الذي شذّ عن مَداره لا يبقى فيه من حياة إلّا حياة المهاوي «حيث يتدحرج البشَر والقِيم جميعًا.»

القارئ، هنا، تهجُم عليه مخلّفاتٌ حربيّةٌ تستعيد نفْسَها ـ صوَرَها ـ في أثناءِ خدمةِ القدّاس في الكاتدرائيّة التي يرتفع فيها صوتُ الكاهن وقد التمس غفرانَ الخطايا والذنوب لكلّ مَن ارتكبها من أحياء وأموات.

أمّا بَطَلُ قصّتك، واسمُه بَلْعام، فهو رهينُ ماضيه إلى حدِّ الذوبان فيه وفي عقَدِ مركّباته. بَلْعام يصلّي ويتذكّر المعارك في لحظة معًا. بَلْعام أسيرُ الحرب التي خطفتْ حاضره ومستقبلَه.

فيصرخ: «موتنا لا يكفي حريّتنا.» ثم يعود إلى الصلاة والاستغفار.

هنا الأزمة أزمةُ ضمير: «الألم يتأكّلني. آلامي تشتعل. لا نهاية لهواجسي. الحرب على الإنسان لا تنتهي.»

وتأبى مَشاهدُ المعارك إلّا أن تتداعى عليك وعلى بَلْعام في غلوٍّ قد يُستغنى عنه وإنْ تكن تفاصيلُها صحيحةَ الواقع تسمّي المناطق والشوارع والبنايات التي شاركتْ، هي أيضًا، في حرب لبنان ولو على كرهٍ منها في سوادِ الأحوال. بيد أن المقاتل إذا «وَجَدَ نفسه بين أن يَكون أو لا يَكون، يشبّ فيه غضبُ التتار وهمجيّتهم.»

وإلى ذلك تبرز، في فوضى التداعي، مَشاهدُ موفّقة يختصرُها قولُك: «أتعتقد أنْ سنستفيد من هذه الحرب؟» ويزكّيها قولُك: «أعطانا الله ذاته دون حساب. فعلينا نحن أن نعطي أيضًا ذواتنا للوطن دون حساب.» ثم يؤدّيها قولُك: «أتمثّل زوجةً باكيةً تردّد: لو تعرفين كم أَعطيتُ! أمّي وأبي وأخي، واليوم مَن يدري؟ ربّما زوجي. لم يبقَ لي أحد غيره. ألا يكفي هذا؟» ثم يؤيّدها قولُك: «عجيبٌ أمرُ هذه الحرب، سقطَ فيها الإله، وسقطَ فيها الإنسان، مَن فيها على حقّ؟»

خاتمة القصّة رجوعٌ إلى الكاتدرائيّة رمزًا للدِين والدنيا معًا ـ كاتدرائيّةِ قبْل الحرب، وكاتدرائيّةِ زمن الحرب ـ وما

بَعْدها ــ كما تقدَّمتِ الإشارةُ إليه. آيةُ رجوعك، هذا، انكفاءٌ إلى نفسك وانطواءٌ عليها وقد بلغتَ عامك السبعين، فابتدأتَ تكابدُ أرذل العمر. قلتَ: «قلعتُ أسناني كلّها، وعيناي شبهُ مطفأتَين تعيشان على رحمة العدسات اللاصقة المزروعة في محجري. في مَفاصلي شيخوخةُ ألفين من الأعوام تختَّرتْ بفعل الغليان وتبخَّرتْ حتى صارت سبعين عامًا. [...] فقدتُ كلَّ هذه الكميّة المكثّفة من السنوات، بحروبي مع ذاتي ومع عشيرتي، ومع وطني وبني قومي، وحروبي مع الغزاة، ومع الطامعين، ومع الخصوم على أرضه، ومع المؤيِّدين والأنصار، وحروبي مع طائفتي، ومع الأنانيّة والغطرسة والكبرياء والنفاق والثعلبة والعمالة، وأهمّها وأخطرها وأشدّها هولًا: الموت!

كلُّ ما حولي ميت!

والهزيل حيٌّ حتى الموت!

الغياب موت. والخواء موت. والضياع موت. والتنزّه في الخرائب موت.»

عزيزي،

أتدري أنّ سؤال القصّة، عنوانَها، هو، في نظري، مِن أَعضل المسائل في لبنان اليوم؟

ــ «ماذا بقي بَعْد القتال؟»

ــ كلُّ شيء إلّا القتال.

ذلك رأيُ كبارِ المَراجع، وعلى رأسهم فؤاد بطرس، لا عن تشاؤم، بل فهمًا منهم لواقع الأمور.

قِصّتكَ ـ عودًا على بدء ـ قصةُ الوطن الذي لا يستحقّه إلّا الأقلّون. إنها، عندي، مِن أفضلِ ما أَلَّفتَ. لكأنها مِن لحمِ شعبنا ومِن دمه، ومِن نفحاتِ روحه ولفحاتها، على مُعلَّلاتِ لُحْمَةٍ في بلايا تمزّقٍ وإحباط.

قِصّتكَ ـ شأن كلِّ ذاتِ شأن ـ لها توابعُ تُقلِقُ فتؤَرِّقُ. وفحْواها أنْ قد هاجَر من هاجَر (مثلما فعل الكثيرون منّا،) لكنه لم يهجر، بل لاح وكأنه مقيم في قلب لبنان، وعقْله، وفي طبيعة جغرافيته، وَمنطِقِ تاريخه. أفليس ذلك مِن أعزّ ما بقي في الذاكرة ولو انتشتْ بمثاليّةِ الأخيلة؟ فأدَّيتَه بقلمك الإنسانيِّ التشوّق تأديةً لبنانيةَ الإيمان، عفويّةَ الأسلوب، حُرّةً، صافيةً، لا زيغ فيها. فلمَ لا تترجَم قصّتك إلى بعض ألسنة الأمم؟

أُمُّ الصداقات
في الشيخ محمّد الجسر

الشيخ محمد الجسر، هذا الذي لم تصنعه عمامته، كان مِن أَوائل الأسماء التي سمعتُ بها عندنا، في البيت، فرأَيتُ إلى أصحابها وأنا يومئذ طفل. كان ذلك في مطلع الربع الثاني من القرن العشرين. فوعيتُ الرجلَ الرئيس ـ الذي حُرمناه قبْل الأوان ـ مذ وعيتُ نفسي.ثم زكوتُ في سعةٍ مِن سماحته، على رسوخِ أَصْلٍ منّا جميعًا وامتدادِ فروع تخطّتْ وشائجُها الصداقة الشخصيّة إلى صميم الصداقة الوطنيّة، أُمِّ الصداقات.

نشأَتْ بين آل الجسر وسركيس، على تعاقبِ أَجيالهم الثلاثة أو الأَربعة الأخيرة، أسبابُ تواصلٍ عميق كانت الثقة محورَ آياته

مدخل كتاب الشيخ محمد الجسر، من مجلس المبعوثان إلى رئاسات لبنان، تأليف عبدالله إبرهيم سعيد، مقدمة باسم الجسر، منشورات دار النهار، بيروت ٢٠٠٥.

وقد توارثناها، خَلفًا عن سلف، مِن أيّام حسين الأوّل الجسر وخليل الأول سركيس، فمحمد الجسر، فرامز الأوّل سركيس، وبينهما نديم الجسر، إلى باسم الجسر ـ فضلًا عن أشقّائه وإخوته ـ فإليّ أنا ولا فضْل.

بالثقةِ، الثقةِ الضمير، تلك التي ألّفَتْ بين أسرتَينا في ما يُسمّى «العائلات الروحيّة»، تَعاملْنا، زهاءَ مئة وخمسين سنة، في كثير من ميادين الشأن العام والشأن الخاص. وربّما كان جوهرُ القصد بهذه التسمية هو أن العائلات الروحيّة، في بلدٍ مثْل لبنان، لا يقتصر معناها على النخبة وحدها، وعلى سواد الناس دون غيرهم، ولكنه يستمدّ من إيجابيّاتِ هذه وتلك، ومِن سواها، حقيقةَ المواقف التي عليها تُبنى مقتضياتُ الوطن؛ فتُصان وحدتُه كيانًا، وحرّيتُه إنسانًا في كرامةِ شَعْب وسلامةِ مَصير.وما كانت روابط الصداقة التاريخيّة بين آل الجسر وسركيس لتكتفي، في هذا النحو، بظواهر التعايش، ولكنها جاوزتْه إلى بواطن التفاهم، ثم إلى روحِ التضامن في قضايا لبنان إجمالًا وشِبْهَ تفصيل.

تلك الروابط مجموعةُ قيَم: الإيمانُ صدقًا وشجاعةَ فعْل. الرجوليّةُ عزمًا يقاوم مَن لا يسالم. الولاءُ إيفاءً بالعهد واضطلاعًا بالأعباء والتبعات، مع العَود عن الخطإ اتّضاعًا في حضرة الحق، ومع الحكمة في طموحِ مَنطقٍ إلى آفاقِ انفتاح. تلك الصداقة بين آل الجسر وبيننا ذكّرتْني خلاصتُها بما كان لهم،

وما يزال، من مَقام العزوة التي يقابلها، في طبيعة التنافس، مَقامُ العزوة الكراميّة، مثلًا، وسواها من مقامات الأسَر والأنساب ـ زيادةً على الأحزاب الحديثة وتوابعها ـ انطلاقًا، هنا، من طرابلس لبنان إلى أكثر مناطق البلاد. وكان في تمام المرتجى لو حافظ كلّ مَقام على مستوى التنازع بينه وبين المقام الآخَر أسوةً ببعض ما سلف. فإنما الوطن فوْق الجميع ـ أو هذا ما وجبَ أن يكون.

هكذا أرادوا لبنان. هكذا أردناه. لكنْ أَصالّةُ مِثالِيِّين هذا الذي أَرادوا وأَردنا؟

رسالة إلى جورج قرم
هو الدِين ! هو الدِين !

لندن في ٢١ كانون الثاني ٢٠٠٦

صديقي العزيز،

بكتابك الجديد(١) La Question religieuse au XXIe siècle **(المسألة الدينيّة في القرن الحادي والعشرين)** أرهقتَ عينيّ المتعافيتَين، إذ شغّلتَني بما أثرتَ فيه من بعض القضايا التي ربّما تعذّرتْ على مَن يقارب هذا الموضوع الكبير.

هو الدين! هو الدين! كيف؟ متى؟ إلى أين؟ مغامَرةُ صراع. إيجابٌ وسلبٌ فعلًا إلى ردّ فعل. نخدم الدين أو نستخدمه؛ وفي الحالتَين نعترف به؛ وقد نعترف له؛ لكنْ يصعب علينا أن نعرّفه. أيَكون التعريف، هنا أيضًا، سببَ إشكال، وخصوصًا في

Editions La Découverte, Paris 2005.

زماننا هذا المثخَن حتى الإحباط فالضياع؟

في البدء تتويجُكَ للمؤلِّف بعنوان يفتتح مضمونُه أوائلَ القرن الطالع. ذلك مَوقفٌ لك سبّاق، مستقبليُّ التمنّي، جريءُ المخاطَرة، في تفاؤلٍ طُموح. العنوان رأسُ انطلاق من مثاليّةِ أفلاطون ومَنْطقيّةِ أرسطو، إلى عقلانيّةِ ديكارت وتقدُّميّةِ التعالي عند تيار دو شاردان، من خلال التوبة الأوغسطينيّةِ الأم، ومن سائر التراث، وممّا إليه وممّا عنه من أنْفاسٍ سقراطيّةِ النفحات، حُرَّةٍ، أبيّة.

ثم الإبحارُ مِلءَ الكتاب: جدليّةُ فصول محْورُها الدين. الإيمان آيةُ الدين، على تنازعِ بعضِ فئاته، وتناقضِ بعضِ شؤونه. أمّا الطائفيّة ــ لا بدّ من التكرار ولو مبتذَلًا ــ، فهي آفةُ الدين. النعمة والنقمة في الكلمة نفْسها. الملاك والشيطان سليلا السماء الواحدة، برغمِ ما بيْنهما من انفصامِ الهويّة التي لا شيء أَبلغ منها للإفصاح عن طبائع الكون اتجاهًا مِن مستوى الإنسان إلى ما فوْقه وما دوْن.

هنا الدين طابَعُ الهويّة، بل مجموعةُ طوابعها. عليه بَنَتِ الهويّةُ بيتَها ــ عهْدَها ــ، مرّةً في المنظور الآتي، ومرارًا في الآتي المنتظَر أو غير المنتظَر، ــ بحسب المقتضى. إلّا أن الهويّة، على ما اعتراها من انحراف ببعضِ مقاصدها، لا تكاد تعي أن هذه المقاصد ربّما أَفضت، في صميمِ حضارةِ العولمة،

إلى ما قد يذكّر بزمنِ محاكم التفتيش.

أيكون الدين وَجَدَ في العولمة ميدانًا لرسالته ما له مِن علاقة بحقيقةِ الإيمان؟ يّتيمتُنا ـ حقيقةُ الإيمان ـ لا ننشدُها في هذا المدى. ليس هنا مسقطُ رأسها. غدَت بالمنفى وقد كابدتْ ما كابدتْ من أزماتِ جرحها التاريخيّ المزمن.

أمّهات الحواضر: القدس، رومة، مكّة، فضلًا عن أنطاكية، وعن توابعهنّ جمعاء، هجرتْهنّ غدويّاتُ الشعوب التي شرّدتْها ضواغيطُ التاريخ. بات هيغل هو الحاكم بأمره. ثم عَصَفَ الزمنُ الرديء، منذ أيّام نيتشه ـ مثلًا لا حصرًا ـ، إلى نُذُرِ مخلَّفاته، فإلى ما بَعْد.

هجماتُ السلبيّات المعولَمة، الناريّة الأمواج، ضربتْ زلازلُها كيان الإنسان، فزعزعتْه، ثم ألقتْه في حمّى البراكين التي كثيرًا ما تحرّقتْ منها حنّةُ أرنْت أسوةً بمرشدها ياسْپرس. فتفجَّر في عمقها السؤالُ الوجوديّ الرهيب: أين أين الإله وسْط هذه المسكونيّة الدينيّة المزيَّفة؟ أين الفرح؟ أين الرجاء؟

لم يبقَ للإله مِن ملجإٍ إلّا قلبُ الطفولة، لعلّها تنجّيه من آفات التعصّب بَعْد ما أضحى التطرّفُ هو السيِّد المموِّل، والاعتدالُ شِبْهَ الفقير المتسوِّل، والقِيَمُ، روحيُّها ومادّيُّها، أسيرةَ المعتقَلات الطائفيّة. أفيكون الغرضُ هو الاستغناء عن الإله، أو يستسلمَ الإلهُ لمشيئةِ المتعصّبين ولسائرِ دعاةِ التطرّف؟

لكنْ، برغم من أحكام الظلم، تَسْلم، في زاويةٍ ما من قلبِ الطفولة، ذَرّةُ إيمان هو حبّة الحنطة التي تُخصب المواسم. إنها ــ حبّة الحنطة ــ صَنْوةُ الجزيرة المنمنَمة وقد علا حقُّها فثبتتْ أمام أوقيانوس الجبروت لم تُحرَق ولم تُغرَق. إنها مسقطُ الرأس، رأسِ الرجاء حيًّا ولو في القبر. إنها الفصح المستعاد. إنها القيامة. الفرح. العهد الجديد لحقيقةِ العهد.

صديقي العزيز،

لو نعرِّج، مِن بَعْد ذلك كلِّه، إلى لبنان اليوم في مضطرَبه العظيم، لربّما تبيَّنَ لنا أن في كلِّ بلدٍ اسمُه لبنان ــ ولبنان جَمعٌ بصيغةِ المفرَد ــ أمثالًا لِما عدْنا نقاسي في الوطن الأمّ، وفي بعض أقطار الهجرة وآفاق الانتشار. إنها نماذج لنتائجِ التعدّدِ السّلبيِّ التنوّع وقد استغلّته شياطينه، فنَفَرَ من سطوة العقائد المعلَّبة إلى تسلّط الدين اللاديني.

مرّةً أُخرى: إلى أين؟ أَكُتِبَ علينا، في لبنان القرن الحادي والعشرين، أن تتولّانا طائفيّاتُ الأخطار التي حفّتْ بأغلب تاريخنا، قديمه وحديثه، فلم تقدر أن تقضي علينا قضاءً نهائيًّا، كأنْ ليس في لبنان مِن شيء نهائيّ إلّا الإيمان بلبنان؟

لبنان وطنٌ مؤجَّل؟ ربّما. لكنه، مع ذلك، وطنٌ لنا دائم. التعايش المتنازَع القوى بين الأقلّيّات الأكثريّة التي تكوّن ــ أو لا تكوّن ــ لبنانَ، هو، في الأظهر، علّةُ مؤَجّلنا المزمن.

الأقلّيّات الأكثريّة لا يؤلِّف مجتمعُها وطنًا إلّا إذا هي تخطّت واقعَها. فأين رؤى التخطّي؟ أين الحلم؟ أين الخيال؟ أين العقل؟ لمَ نقنع ببشريّةِ الممكن لسنا نتشوّق إلى عبقريَّةِ المستحيل؟

فنُّ الممكن؟ لا. نهجُ المستحيل؟ نعم. لا لبنان إلّا بالمستحيل. المستحيل لا يستحيل إذا تجنّدتْ له طاقاتنا الواعدةُ المستوى في وحدةِ خُلقٍ ومعرفةٍ هما خلاص المستقبل.

المستقبل، كالاستقلال، «يؤخَذ ولا يعطى».

عزيزي جورج قرم،

ذلك بأجمعه ـ وسواه أيضًا ـ هو بعضُ ما أوحاه إليّ كتابك الجديد. جملةُ عموميّات في حفنةِ خصوصيّات حاولتُ من خلالها قِيَمًا لتراثنا، ابنِ الجغرافية والتاريخ، في ما لعلَّه يُنشِئ، فينجِز، فينقذ، فيكون لنا الوطنُ الذي نستحقّ. لستُ أَغلو: اليأس، عندي، إلى حين؛ والمرتجى فكُلُّ حين.

رسالة إلى تركي الدخيل

أشياء كبيرة بأشياء صغيرة

لندن في ٣ حزيران ٢٠٠٦

عزيزي الأستاذ تركي الدخيل،

رأيتُ إليك وأنا أَقرأُ كتابك ـ إذ القراءة، عندي، رؤيةٌ فرؤيا ـ، فسبرتُ عمقَ إرادتك التي طوت بك المسافةَ بين عالَم السَمانة وبعضِ نقيضه لم تُفْقدكَ ابتسامةَ التفاؤل فطرةً واكتسابًا، ولا حرمتْ جمهورَ قرّائك سخريةَ كتابةٍ «تُنسي الهمومَ اليوميّة»، بحسب ما ذكرتَ في مقدّمة الطبعة الثانية. فجمعتَ في أَوّل أَمرك بين ثقلِ الوزن وخفّةِ الروح، ولازمتْك الهزئيّةُ في معظمِ أحوالك، حتى إنك طاب لك أن تشخر من

ذكريات سجين سابق، الطبعة الثانية، تأليف تركي الدخيل، الناشر: مكتبة العبيكان، الرياض ٢٠٠٦.

ذاتِ نفسك فقلتَ إنّ «أرقى أنواع السخرية هي السخرية من الذات.»

ولقد أَلفيتُني، مِن بَعد التقصّي، حيالَ إنسان عرف كيف يزكّي إرادته وكيف يزكو بها، فاستوتْ به إلى فروسيّة التخطّي. أمِنْ قيمةٍ للحياة لولا التخطّي؟ أليس هو المحرِّك الذي يحوِّل أَحدَنا، لا كُلّنا، من حيوانٍ ناطقٍ إلى مَقامِ ناطقٍ حيٍّ الأبجديّة قلبًا وعقلًا في مَدى قلمٍ يجاوز حدودَ الحَرْف إلى صميمِ الروح؟

عندئذٍ يا لصفاء نَفَسٍ هو سليلُ الكلمة مشيئةً فيها تقترن جبريَّةُ قَدَرٍ بحرِّيَّةِ اختيارٍ ربّما عَدَل بنا عن بعضِ ما كُتِبَ علينا ولم يَحِدْ، مع ذلك، عن استقامةِ الطريق ومَقاصدِ الحق.

أخي العزيز،

لعلَّ مِن أَجمل ما قرأتُ في **ذكريات سجين سابق** هو أنك بأشياءَ صغيرةٍ صنعتَ أشياءَ كبيرةً بلا تَرهُّل ولا تَعمُّل؛ فأَفصحتَ عن بساطةِ نَفْسٍ خيِّرةٍ آمنتْ بأن الحياة حبٌّ وعطاء.

رسالة إلى قيصر عفيف

الهويّة الأُمّ في مشارق الهويّات ومغاربها

لندن في ٢٨ تشرين الأول٢٠٠٦

الأستاذ قيصر عفيف،

مكسيكو

أخي العزيز،

مكسيكيّتك الشعريّة[1]، بلسانها العربيّ ـ ما عدا يَسيرَها اللبنانيّ العاميّة، ـ احتفظتْ قصائدُها بهويّتها الأُمّ إذ انفتحتْ على هويّةٍ لها مكتسَبة، في كثْرٍ ما انفتحتْ عليه عالَميّةُ سابينس من مَشارقِ الهويّات ومَغاربها. فانطلقتَ بقلمك تَغطُّ رأسَه ـ وقلْبَه ـ في حبرِ اللغتَين إرادةَ أن يتحاور، في قصائد

خايمي سابينس، قصائد مختارة، أدّى النصّ العربيّ قيصر عفيف، دار نلسن، السويد، ٢٠٠٦.

مختارة، مَنطقُ تعبيرِ أميركيٍّ لاتينيٍّ وحداثةُ إفصاحِ عربيٍّ البيان. فكان قوامُ التأدية، هنا، مغامَرةَ سَفَر من قارّةِ حضارةٍ إلى قارّةِ حضارةٍ أُخرى تَفَاعَلَ فيهما النأيُ والقُربُ، في مَسيرةٍ موحَّدةِ الشأو وسعتْ جغرافيةَ الثقافتَين وتاريخَهما، ثقافةِ المكسيك أصلًا، وثقافةِ لبنان في النصِّ المترجم ــ أو، على الأصح، في النصِّ المؤدَّى. فبات هذا المَوطِنُ الشعريُّ، المثنّى إقامةً واغترابًا، مسكونيّةَ عطاءٍ غنيٍّ الطموح في أعماقِ توغُّلٍ وآفاقِ تراث.

حسْبُ **قصائد مختارة**، العفويّة الأناشيد، ما هي عليه مِن بساطةِ كلِّ شيء.

رسالة إلى نسيب زيادة

كارول داغر في كتاب التحدّي

لندن في ٢٧ تشرين الثاني٢٠٠٦

الأستاذ نسيب زيادة،

واشنطن

و . م . أ

عزيزي نسيب،

قرأتُ كتاب كارول داغر(١)، فشكرتُ لك الهديّة حقَّ الشكر. ثم تبدّى لي، وأنا في صفحات منه، أن مؤلِّفته اقترنتْ بلبنان الحرب وقبْل الحرب وبَعْد الحرب اقترانَ إنجاب تجاوَبَ فيه نفخُ مثاليّةٍ أفلاطونيّة ونهجُ مَنطقٍ مستوحًى من أرسطو،

---

(١) Carole H. Dagher Le Défi du Liban d'après -- guerre, traduit de l'anglais par Danielle Saleh, Editions l'Harmattan, Paris.

فضلًا عن أخلاقيّةِ سقراطيّةِ المواقف.

لبنان، بصيغةِ المذكّر والمؤنّث وصيغةِ المفرد والجمع، هو، في نظري، جَدُّ المؤلِّفة وأبوها وأخوها وزوجُها وولدُها وحفيدُها، ومَن إليهم ومَن عنهم جميعًا مِن قبْل ومِن بَعْد. هؤلاء كلُّهم شعرتُ بأني عاصرتُهم إذ رأيتُ إليهم في شجرةِ أُسْرَةٍ واحدةِ الأرومة لا علاقة لها ـ مثلًا ـ بشجرةِ پول ڤاليري الذي ذهب في القول إلى أن استنطاق الأثَريّات، لا تدوين الأحداث، ربّما كان أَصدَقَ شاهد على صحّةِ التاريخ في مجرى مَنطقه الطبيعيّ الصراعِ خَتْمَ هدمٍ في قصدِ بناء.

لبناننا، هذا، مَسْقطٌ لرأس تراثٍ مستقبليٍّ الطُموح عقلًا وقلبًا في إرادةِ كيان. كيانُنا هذا، في واقعِ شأنه وفي المرتجى، هو نبتةٌ جغرافيّةُ التاريخ في حضارةِ الشرق الأدنى، لا الشرق الأوسط كما يُذكَر خطأً ـ أو عمدًا ـ في تكاثرِ أحوال. مَوطنُ الأرز جَبلُ إطلال على مَدى البحر أُفقَ حُريّة في إثرِ أفق، مع تقاليدِ انفتاح على أُخوّة الجوار السخيّ ولو في ظمإ الجفاف.

ذلك بعضُ ما قرأتُ بين سطور مؤلِّفٍ أُجيزُ لنفسي أن أُسمّيه كتاب التحدّي. إنه كتاب لا يكاد يُنتَهى منه إلا بَعْد تكرار العودة إليه؛ فكأن قارئه يُقِيم في بعض فصوله إقامةَ وعي وارتياح لا ينفيان عِلَلَ القلَق العظيم.

قارئُ هذا الكتاب، الموجَّهِ أولًا إلى نخبة ينبغي أن تعرف

عن لبنان أمورًا ما كانت لتعرفها، في المرجَّح، لولا صراحة كارول داغر ــ قارئُ كتابنا، هذا، تجذبه روحُ مضمونه، من أَلِفه إلى يائه مرورًا بسائر أبجديته التي تعاطت أرضَنا وسماءنا، وما بيْنهما، تَعاطي ولاء. فآمنتْ بحقٍّ الوطن علينا وبحقِّنا عليه إيمانًا يرجو كلَّ شيء، ويتوقَّع كلَّ شيء، لم تَخشَ، ولم تيأس، برغم ما تكابد من جوائح الليل والنهار.

لبنانُ هذا الكتاب، وغيْرِه، أَقوى من نَعَميّاتِ مصيرنا ومِن لائيّاته ــ مصيرِنا الذي جُبِلَ على أن ينازل تحدّيات الأخطار وقد تعلَّمَ أنها مِن لزوميّات قدَره. ولطالما كرّرْنا أن قوّة لبنان ليست في ضعفه، وإن يكن في قوّة لبنان مِن غنى التنوّع والتعدّد ما لا يفتأ يثير فيه، على تعاقبِ أجياله، بعضَ أزمات الضعف والتخلّف. وكيفما سَلكَ لبنانُ اليوم، فقد حُكم عليه أن لا يحكم نفْسَه بنفْسه ما لم يحكمه سواه في ازدواجيّةٍ تَغْلب عليها السلبيّات، ولا خلاص له منها إلّا إنْ هو وحَّد نفْسَه ونَصَّه في حرمةِ وطنٍ وحريّةِ كيان، فلا يبقى لبنان أداةً للاستعمال، بل يصبح وطنًا يضطلع بتبعاتِ الاستقلال الحقّ.

... لبنان، مضرَّجًا بدمِ شهدائه، وديعةُ معلوم ورهينةُ مجهول.

رسالة إلى سلمى مرشاق سليم

سفْرُ وفاء في صحيفةِ قدْرٍ وعرفان

لندن في ٥ شباط ٢٠٠٧

السيدة سلمى مرشاق سليم،

بيروت

سيدتي العزيزة،

إبرهيم المصري مَدين لك. مؤلَّفك سِفْرُ وفاءٍ، صحيفةُ قدْرٍ وعرفان.

المدخل البيبليوغرافي تخطّى مضمونُه حدودَ العنوان إلى صميمِ إنسان أفصَحَ عن ذاتِ نفْسِه وعن آخَره، وعن سواه أيضًا، في مجموعِ كمٍّ غفيرِ الأعمال.

جوُّ مؤلَّفك هو ـ مثلًا لا حصرًا ـ جوُّ مجلّة **الهلال**

إبرهيم المصري، رائد القصّة النفسيّة، مدخل بيبليوغرافي، دار الجديد، بيروت ٢٠٠٧.

وأخواتها في عزّ أيّامها، أيّام طه حسين وخليل مطران وعبّاس محمود العقّاد وإبرهيم عبد القادر المازني وعبد العزيز البشري وتوفيق الحكيم، ومِن قبْلهم شبلي الشميّل وجرجي زيدان وفرح أنطون وإسماعيل صبري ووليّ الدين يكن وسليم سركيس ويعقوب صرّوف وبُناة المقطَّم والأهرام، وسِواهم من أولئك الذين في معيّةِ شوطهم انطلقَ شاغلُ عنايتك الأكاديميّةِ الكاتبُ إبرهيم المصري.

في خلْفيّات ذلك الجوّ قرأتُ أبجديّةَ حنين وشوق إلى زمن «الشوام المتمصّرين»، كما سمّيتِهم، وقد آبَتْ أجيالٌ منهم ــ لأسباب جدٌّ معلومة ــ إلى ديارهم الأُولى، مَنبتِ آبائهم والأجداد.

عند ذلك المنعطَف يطلّ، في بعض صفحات الكتاب، اسمُ دير القمر، مسقط رأس سليمان الحدّاد والد إبرهيم المصري؛ لكن الموطن الأوّل لا ينزع بالمصري إلى لبنان. فصاحبُنا مصريّ حقًّا، مصريّ من الألف إلى الياء، مصريّ منذ نشْأته، إلى مراحل عمله في الدرس والتدريس، مرورًا بنشاطه الصحفيّ، فبأزمتهِ النفسيّة التي عطّلتْه بضعَ سنوات في مضطرَب حياته الزوجيّة، فوتّرتْ بعضَ كتاباته؛ ثم انتهاءً إلى شأوِ قلمٍ معطاء لا فسحة، هنا، للإسهاب في طبقاتِ مؤلَّفاته، عشراتٍ فوق عشراتٍ، من ثلاثينيّات القرن العشرين إلى ثمانينيّاته. فمن طلبَ مؤلَّفات إبرهيم المصري كلَّها، تعيَّنَ عليه

أن يعتمد مؤلِّفك، إذ أَوردِتها، واحدًا فواحدًا، بأمانةٍ وبنهجٍ بيبليوغرافيّ دقيق شامل لم يقارب شيئًا إلّا بحث فيه، فحقَّقه، فعَلِمَه، فأَعلن.

وربّما كان في جُلّ وأَجَلّ ما استخلصتُ من هذا النهج، ومن توابعه، هو أنه لولا مؤلِّفك، لما تسنّى لإبرهيم المصري مَن يذكره فينصفه. ألا توافقين أنّ عصرنا، عصرَ الهرولة، أَفقدَنا كثيرًا من نعمةِ الصبر ومن فضيلةِ العودة إلى الأُصول، ينابيعِ الفروع، وإن طار بنا العصر، ملءَ الكشف والاختراع، إلى عوالمِ كونيّات ما تنفكّ على ازدياد، إيجابًا وسلبًا، في ما لا تُحصى عجائبه؟

سلمى مرشاق سليم،

شكرًا لك ثم شكرًا من إبرهيم المصري ومِن صفوةِ أُمثاله الذين ربّما طوى أَكثَر صفحاتهم الإهمال والنسيان، وخصوصًا في بعض المجتمعات التي لم تَرْقَ، على العموم، إلى مستوى إنسانِ القدْر والعناية والوفاء.

سدرك أمين حدّاد

بين يدَي الإيمان والعالَم

الإيمان والعالَم في وحدةِ كيان. هكذا أَختصر سدرك حدّاد في روحيِّه وماديِّه، شخصًا ونصًّا، على رتبة كهنوت الرعيّة المتعدِّدة المذاهب والفئات في حرمة الكنيسة الإنجيليّة الجامعة.

كان سدرك حدّاد يبكِّر إلى عيادته لطبّ الأسنان، وقد مارسه على توارثٍ ثلاثة أجيال حدّاديّة ـ ابنًا عن أب إلى حفيد ـ، في نظامِ خمسةِ أيّام صارمةِ المواعيد، نحوًا من نصف قرن. حتى إذا انتهى طبيبنا إلى مساء الجمعة من كلّ أسبوع، أغلق باب العيادة في بيروت، ثم انتقل مِن جوِّها الضاغط إلى صفاءِ الراحة القرويّة في عبيه، فقضى السبتَ

مدخل كتاب في يقين الإيمان، عظات مختارة للدكتور سدرك أمين حدّاد (١٩٠٦-١٩٨٩)، ألقاها في كنيسة عبيه الإنجيليّة بين ١٩٤٨ و١٩٦٤، وأعدّتها للنشر فريدا حدّاد عبس، بيروت، ٢٠٠٧.

والأحد في مسقط رأس أُسرته، عاصمتِها العائليّة العريقةِ التاريخ. ولطالما حمل معه، في بيانٍ وجدانه، موعظة الأحد، فألقاها على المصلّين في الكنيسة الإنجيليّة التي كانت تجاور ميتم عبيه(١) ومدرسته.

مِن تلك المسيرة المواظِبة التي تفاعَل فيها الإيمان والعالَم ـ ولا جدليّة، ههنا، بينهما ـ استمدَّ سدرك حدّاد إرادةَ سِيرته. فكان للكتاب المقدَّسِ العهدَين قسطُه عند صاحبنا من جهة، وكان للمبضع والكلّابة ولأداةِ نَقْرِ الأسنان إلخ... قسطُها مِن جهة أخرى. وكان لموجباتِ هذه وتلك ـ مع المراعاة النشبيّة ـ نهجُ توازنٍ مشترك يرحم أو يؤلم بحسب المقتضى. وأذكر، في ما أذكر عن طبيبنا الواعظ، أنه قلّما كان يمزح في بعضِ ذلك من جدّيّةِ عمله لحظةً يقول لمريضٍ ما: «افتحْ فمك» وهو يعني: إخرسْ! فالموعظة، في سياق هذا الحكيم، ليست فمًا مفتوحًا على كلام فارغ، بل هي قدوةُ فعلٍ متينِ البناء على أقلّ ما يمكن من الكلام.

المواعظ السدركيّة ليس شأنها سردًا غَيْبيَّ اللاهوت؛ ولكنها، في ما يبدو لي، مُريدةُ ناسوتٍ واقعيٍّ بعيدٍ عن الخطابيّات المنبريّة، قريبٍ من الاختبارات اليوميّة الحيّة. مواعظ عبيه، هذه، ضرْبٌ معْوَل في حشمِ قول. لا حشو. لا تكرار.

(١) ميتم ليّا بركات.

إنها من ينابيع الربّ في عصمة **الكلمة** التي في البدء كانت. إنها ـ المواعظ السدركيّة ـ نفحاتٌ روحانيّة في كنيسة للباب الضيِّق لا تكاد مساحتها تزيد على مساحة عيادةِ طبيب الأسنان في بيروت. إلّا أنها، مع ذلك، تسَعُ الإيمان كلَّه وتحيا على بَرَكة الأرغفة الخمسة والسمكتَين.

مواعظنا، هذه، سليلةُ أرضٍ عبيه جبلًا وسهلًا على مطلّاتِ أوديةٍ خضراءِ التلال، تُحاور بحرًا في آفاقِ حُرِّيّته؛ بينما طبيبنا الراعي قد هبَّ إيمانُه يتعالى إلى سماويّاتٍ صيفيّةِ الزُرْقة والضياء، أو شتائيّةِ التلبُّدِ والغيوم، على حسب مناخ الطبيعة الرباعيّة الفصول؛ أو، في بعض الوقت، على حسب مزاج أخينا الطلْقِ اللسان لطفًا، أو عصفًا، أو بين بين...

آية هذه المواعظ، في نظري، هي أنها نفثاتُ إيمان لا أحاديث ثقافيّةٌ يحيد عنها الموقف السدركيّ وإن يكن في مواعظه من ثقافة الأناجيل الأربعة وأعمال الرسل، فضلًا عن فصول العهد العتيق، مؤثِّراتٌ عظيمةُ التراثِ، أوفتْ، فأغنتْ، فكانت مرجعًا لصاحبنا الذي استعان بكثير من كنوزها، ـ وخصوصًا من خلال ما قَصَّ وما روى، وفقًا لنمط الوعظ الإنجيلي التقليديّ المعهود ـ؛ فكان شاهدًا لها، وشاهدًا عليها، وبقي يدأب في سبيلها طوْلَ العمر.

قد يلوح أن في باطن تلك المواعظ محاولةَ تخلُّصِ مردُّه،

عندي ـ وربّما عند غيري ـ، إلى عفويّةِ بساطتها الإيمانيّة التي حرّرتْها ممّا ليس من جوهرِ قصْدها؛ فكانت، في جُلّ ما لها وأَقلّ ما عليها، تصميمَ صاحبها، صميمَه روحًا ونفسًا وجسدًا.

سدرك حدّاد، ههنا، قلبُ فرِحٍ في رجاحةِ عقل إيمانًا منه بمعطياتِ الباقيات في ذمّة السماء والأرَضين. بيد أنه، في بعضِ أزماته، تقلُّبَ على شوكِ ارتياب. ثم انتهى به الشكُّ، آخِرَ الشوط، إلى يقين البداية وسلامها. فعاد يصلّي صلاةَ مَن وجَد بَعْدَ ما فَقد. فودَّ لو يردّ الأملَ إلى بعض الذين لم يُرزَقوا شجاعةَ الصبر وقوّةَ الإيمانِ بممكنات الرجاء الأكبر. ويذكر أصدقاء سدرك حدّاد، في هذا الصدد، أنه واجه أيّامَه، بياضَها وسوادَها، بشفافيةِ الصراحة التي لا تَشتر عرْيَها ولا عريَ سواها؛ فأدرك في أواخر أعوامه ـ أعوامِ جحيم الحرب في لبنان ١٩٧٥ فما بَعْد ـ أن التاريخ، في جغرافيا صفحاتِهِ، هو، إجمالًا، سِفْرُ حُبٍّ بلا حُبّ.

لكنْ، مع ذلك، لم ييأس صاحبنا من دنياه نحْوَ الآخرة. فراحَ يَنشد الأكملَ الحاضر الذي يستقبل بعضَ زمنٍ غابر يستقبل بدوره ما وراء المستقبل.قد يقال بأن من يستوي إلى تلك الغاية لا بدّ من أن تغويه خطيئة المعرفة ولو إلى حين. فيرى أن حيّة التفّاحة التي زفّتْ حوّاء إلى آدم، كانت ـ إن جاز التعبير ـ علّةَ أوّلِ مرسومٍ جمهوريّ وصلَ الإنسانَ بآخَره

في أحكامِ تطوّرٍ شاملِ الأسباب والنتائج، يُنصِف تارة، وتارة يُجحِف، يؤرِّخ الصراعَ مع الخطيئة منذ سبعةِ أيّام الخليقة وأسفار التكوين، إلى مراحل الخروج والانتشار، فإلى ثورة الميلاد وما ورائيّاتِ القيامة.

ولكنْ ما العلاقة بين مواعظ سدرك حدّاد والخطيئة الأُمّ؟ أما يكفيه أنه، في العبادة وفي العيادة، ابتغى أن يقلع الضرسَ المريض، وأن يدحرج الحجر ويعلن فصْحَ انتصار؟ أوَما تكفيه نعمة اليقين بأُمِّ العظات، الكلمة، شجرةِ الخلاص، حلالِ ثمر الفردوس، جلالِ الإيمان والعالَم في وحدةِ كيان؟

رسالة إلى سمير عطاالله

ثلاثيّة الميم

في «مقال الأربعاء»

لندن، في ٢٩ تشرين الثاني ٢٠٠٧

عزيزي الأُستاذ سمير،

ليست رسالتي، هذه، إيفاءً منّي لدَين؛ ولكنها وفاءٌ لمَنْطقِ القلم، قلمك، الذي قدّرتُ، فأَحببتُ، إذ تقرّيتُ لديك، في ما يتعدّى ظواهرَ كتابك[1]، وحدةَ تأليف في غنى تنوّعٍ إنسانيِّ الثقافة، ذاتيِّ النفْح، إلى طُموحٍ عمقٍ وأفقٍ انفتاح.

كتابك، هذا، طبيعةُ سهول وأَودية يطلّ عليها شموخُ جبل لا يتسلّقه إلّا المحلّقون. آيةُ أربعيّاتك بساطةُ التزامك فيها طائفةً

سمير عطاالله، مقال الأربعاء، دار الساقي، بيروت ٢٠٠٧.

(١) نُشرت أوّلًا في جريدة النهار، أيّام الأربعاء بين ٢٠٠٠ و ٢٠٠٧.

من القضايا المعاصرة التي تشغِّل ضميرَ الإنسان ثمة وهنا وهناك، فتقلقه أَحيانًا وتؤرِّقه، فيكابد ما يكابد من أَزمات الماهيّة والوجود، على تعاقب العهود وتضاربِ الأَحوال.

أَستشهد، في هذا القصد، بمقتطَف من مقالة **المقترع الحقيقي** (**مقال الأَربعاء**، ص٤٣، ٦-٩-٢٠٠٠): «لا يكفّ هذا الوطن المثير عن صوغ نفسه. وإذ يختلف ويفترق حول أَشياء كثيرة، يعود فيتلاقى عند شغفه القديم: الحرِّيَّة. فهو يخاف عليها أَكثر مما يخاف على نفسه، لأَنه، من دونها، مجرَّد رقعة صغيرة على خريطة كبرى؛ وفي هذه الحرِّيَّة، التي حوّلت الاقتراع انتخابًا، كُتب للبنانيّ هذا العزّ الذي لا يُكتب في آسيا وأفريقيا إلّا للهند: تخسر الحكومة فيسلِّم رئيسها بالنتائج، وتتحوّل السلطة من مشكوّ إلى شاك؛ وكلّ ما يهدِّد به رئيس الحكومة هو الانتقال إلى المعارضة! هل هذه هي الفوضى أَم هي الحرِّيَّة؟ الحقيقة أَن كلّ حرِّيَّة لا تعجبنا نسمّيها فوضى.»

أَليس في خلْفيّة هذا المقتطَف، مع ظواهرِ تفاؤله، بواطنُ تشاؤم كان يودّ لو أَن لبنان ديمقراطيّةٌ صحيحة، السلطةُ فيها، فعلًا لا قولًا، هي رأْس الهرم، والثقةُ بها، أَصلًا وفصلًا، هي قاعدة الشعب؟ متى تَقوى الدولة، عندنا، أَن تغلِّب النظام على أَسباب الفوضى وتُصلح ما بات أَعجز من أَن يضطلع بتبعاتِ دولتنا، فضلًا عن شعبنا، إزاءَ مقتضيات القرن الحادي

والعشرين؟ متى مستحيلا البلد السليب: غسلُ القلوب وغسلُ الجيوب؟ متى نُسْقِط شعارَ أَنْ «لا علينا إذا توسَّختْ أَيدينا، المهمّ أَن نغْسلها»؟

كم بلوتُ، حيال هذه المحن، أَن لبنان، كلمتي، حُرِّيَّتي، وطنٌ مهدَّد. ولئن مَرَّ على أُسرتي فيه نحوٌ من أَلف سنة، فإِن لبنان لم يبقَ بيتي. وكيفما يُحكَم لبنان، فقد كُتب عليه أَن يتولّاه سواه، ما لم يوحِّد نفْسَه ونصَّه في كرامةِ أُمَّة وحرمةِ كيان. إنّ البلد الذي لا تجمعه إلّا النكبة لبلدٌ أَوهنتْه عِللُ التفرقة فمزَّقتْه عوامل التقسيم.

وإذا كان النفوذ الدوليّ، وخصوصًا النفوذ الأَطلسيّ قد سيطر، في هذا الميدان، على آبار النفط وعلى مؤَثِّراته، في ما يجاوز الشرق الأَوسط (الذي توسَّعت جغرافية سياسته حتى شملت الشرق الأَدنى)، فإِنّ النفوذ الدوليّ تعذَّرَ عليه أَن يسيطر على آبار الإسلام. فكان خَليقًا بنا جميعًا، ونحن في حضرة إحدى الديانات الثلاث الموحِّدة، أَن نتذكَّر أَنْ إذا كان اليهوديّ يخفي ضعفه، والمسيحيّ يقوى بضعفه، فإِن المسلم يقاتل بضعفه. أَليس ذلك وجهًا لنقائضِ ثلاثيّةِ التوحيد الذي يقترن بتراثِ الصوت في أَبجديّةِ التلمود، وبتراثِ الكلمة في أَبجديّة الإنجيل، وبتراث السيف قلمًا في أَبجديّةِ القرآن؟

ذلك بعضُ ما أَوحت به إليّ الأَربعائيّات، فاستخلصتُ منها

فحَوى موضوعات قاربتَها بالعقل منك والجَنان مقارَبةً جزيلة البيان تالدًا إلى طارف. فما وراء تلك الصفحات الخمسمئويّة التي تؤلِّف أُسرةَ الكتاب؟

ربّما كان مختصَر الجواب هو بموفَّقاتٍ قِسْمتك من ثلاثيّةِ الميم: ميم الموهبة، وميم المعرفة، وميم المجهود، وقد ائتلفتْ كلّها بمعيّةِ بَدْعٍ منك وصنْعٍ هما، عندي، أَبجديّةُ كلمتك التي تنشئ، فتبْني، فتؤدّي، ثم تفضي إلى المزيد من جنْيِ الثمر، بحسب ما أُحاول أن أبدي شيئًا منه في بَعْضيّاتٍ ما يلي. فأَستند إلى العلاقة النَصّيّة التي تصلني بالكتاب لا أَكاد أَتأثّر بالرابطة الشخصيّة التي تؤلِّف بيننا وأَنت الأخ الذي أَورثنيه خالُك، غائبُنا المُطِلّ، صديقي اليوميّ المزمن، بولس سلامة.

فما مضمون مقال الأربعاء؟

مضمون؟ لا. مضامين؟ نعم. كتابك سِفْرٌ مُثْقَل. صفحاتُه تراثُ مستقبل شرقًا وجنوبًا إلى شمال وغرب. سكّان الكتاب، موضوعاته، مجتَمعُ تألُّقٍ وفيضِ إشراق. أَفما ينبغي، وقد أَجملتُ، أَن أُفصِّل على قدْرِ المجال؟

أَوّلُ ما يتبدّى لي، في هذا الباب، أَن أَربعائيّاتك شَعْبُ مميّزات متقاربة، على بُعدِ المسافة بين المواضيع. لا تكرار؛ لا حشو؛ بل حركيّةُ استمرارٍ عفويٍّ السَويّة والمسِير يطَّرد بين المقالة وما سَبَقها فما تلاها، يجسِّد سيرةَ أَهل البيت الواحد

في توافق وانسجام، على اختلاف العناوين وتباين المواقف، وسْطَ اختلاط الأمور وتضاعفِ الأَخطار.

هنا أَشعرُ أَن في الكتاب ما يستدعي التوسّع في الاستشهاد:

كتبتَ في مقالة **لعنة السلام (مقال الأَربعاء**، ص ٨٣ و٨٤، ١٤- ٣ - ٢٠٠١): «لقد ملّ العالم حروب الشرق الأَوسط. وملّت أَميركا الفواتير ومواعيد الاستحقاق. وقرَّر الغرب في داخله أَنه بعد سقوط السوفيات، لم يبقَ في الأفق أَيّ غريم. وللمرّة الأولى منذ دخول نابوليون مصر، لم يعد الشرق الأَوسط حلبة بين متصارعَين أَجنبيَّين، وإنما هو الآن رهنُ فريقَين: أَهله والغربيّين. لا سوفيات. لا أَتراك. ولا صراع بين نابوليون وهوراشيو نلسون على استمالة مصر. ولا ذكريات استعماريّة تعوق تطوّر العلاقات مع العرب والمسلمين. فقد أَصبحتْ فرنسا الآن أَكبر شريكة اقتصاديّة للجزائر، وبريطانيا عاقبتْ إيدن أَكثر ممّا عاقبتْه السويس. والفلسطينيون يتدافعون في مدريد ويتحدثون عن استراحة المحاربين، إذن، هو السلام؟ لا. ليس هو السلام. فسوف ندرك منذ مدريد أَن لعنة السلام في المنطقة أَكثر عمقًا من لعنة الحرب. وكما أَودى السلم بأنور السادات وهو يحتفل بذكرى ٦ أكتوبر، أَودى بإسحق رابين وهو يعد بالسلام الوشيك. وفي الحالتين كان القاتل هو الحارس. الأَوّل برشّة رصاص في الصدر، والآخر برصاصتين

في الظهر. وفي الحالتين كان القاتل من فريق القتيل وليس من فريق العدوّ. وفي الحالتين قال إنه فعل ذلك بأمر من الله. وفي الحالتين اعتبر القاتل أن القتيل لم يرتكب خطأه في حقّ الشعب والأرض، بل في حقّ ربّه.»

وكتبتَ في مقالة التاريخ والذات (**مقال الأربعاء**، ص ١٠٣ و١٠٤ و١٠٧، ١٨ - ٧ - ٢٠٠١): «ذلك الصيف، كنا في القرية كما يُفترَض في كلّ عطلة. ولم تكن الكهرباء قد وصلت إلى بتدّين اللقش بعد. وكان على بعض المصاطب القليلة مذياع على البطّاريّة يتجمّع حوله الرجال وقتَ النشرة الأخباريّة. وقد تفرّق الرجال بعد تلك النشرة في وجوم مثل سربٍ طيرٍ مرتعد. ورفع بعضهم الطرابيش عفويًّا وراحوا يدوّرونها على أصابعهم بعصبيّة، ويتأمّلون في الفراغ كأنهم لا يرون. وتوقّف الأولاد عن اللعب لكي يعرفوا ماذا قال الراديو على المصطبة حتى حدث كلّ هذا الخوف. وقيل إنه رياض الصلح، اغتيل في عمّان الأردن. بعد بضعة أسابيع عدنا إلى المدرسة الصغيرة في بيروت. وقبل أن يقرع جرس الظهيرة بكثير، دخلت الناظرة وهمست شيئًا ما في أذن المعلّمة، المدموزيل سهام الجاهل. وتطلّعت المعلّمة بي من بين الجمع ثم نادتْني. ووضعتْ يدها على كتفي بما تستطيع من تعزية، وقالت إنّ قريبًا في الخارج ينتظرني لكي

يرافقني إلى البيت. فعدتُ إلى مقعدي وحملت كتبي ودفاتري وخرجت، مدركًا أَن أمّي في المستشفى ماتت دون وداع. ومنذ اللحظة تلازمتْ في ذاكرتي تلك العلاقة بين طبقات الموت: الموت الأعزل على السرير، والموت المعلَن على صفحات التاريخ. الموت الذي تعلنه الناظرة، والموت الذي تعلنه إذاعة العالم من لندن. الموت الذي يبعث الحزن حتى الموت، والموت الذي يبعث القلق والخوف والوجوم ويجعل الرجال يخلعون طرابيشهم بعفويّة، كما في مشهد وصول الحاكم التركي إلى جزيرة كريت في إحدى روايات نيكوس كازانتزاكيس. بدأتُ أَعرف يومها أَن ثمّة موتًا يذهب إلى التاريخ، لكي يعيش فيه. وبدأت أَعرف أَن في السياسة والزعامة شيئًا يُدعى الموت بالاغتيال. وبدأت أدرك، رغمًا عنّي وعن محدوديّات طفولتي، أَن بابًا عنيفًا قد فُتح على مصير لبنان، وأَن الشرق منقلب نحو الشدّة. ومنذ ذلك الوقت والشعورُ الطفوليّ يغرق في وقاحات الواقع وبئس الحقائق. ومنذ ذلك الوقت، وفي كلِّ تمّوز، أَتذكّر أَن موت رياض الصلح تزامن مع موت أمّي. وربّما مع موت الاستقرار في بلد ملهوف، قلِق، مسكين. وقبْل أَيام عندما أُعلنتْ من بيروت مؤسَّسة **رياض الصلح**، استرجعتُ كلّ تلك السنوات على طريقتي، كأَنها كلّها لي. فقد كان مقتل رياض الصلح أَوّل درس في التاريخ، وكان نقل السيدة الخضراء العينين من سرير

المستشفى إلى صنوبرات بتدّين اللقش، أَحزن درس في العمر...

[...] نعرف الآن أَنّ الانهيار السياسي بدأَ مع غياب رياض الصلح. فيوم مضى، غاب الرقيب الأول على ضعف المارونيّة السياسيّة التي لا حدود لضعفها. وغاب الضوء. وغاب الشريك الكامل. وفي ضعفها وشهواتها وتكبّرها وازدرائها، لم تدرك المارونيّة السياسيّة معنًى أَنْ تُشرِّف بالرئاسة ولا أَهميّة أَنْ تُولّى على المسلمين. ولم يفهم فلّاحو القرى ما معنى أَن يكون في بلاد العرب دولة يترأسها مسيحيّ ويحضر قمم المسلمين، ويؤمّهم في السياسة من دون أَن يؤمّوه في الصلاة. كان غياب رياض الصلح إعلانًا عن قِصَر الحلم. ولو عاش، لربّما حلّت الحكمة والرهبة مكان ١٩٥٨. ولو وصل إلى المشارَكة في نوايا فؤاد شهاب، لكان علّمه أَن الإمارة في الناس حُرِّيَّة الناس. لكن مع غيابه، فُتحت الأَبواب، وتدنَّت الأَعتاب، ودخل القوم في متاهة الأَنفاق، وباتوا لا يخرجون.»

... أمّا بعد هذين الاستشهادَين المتباينَين معنًى وإن تماثلا شكلًا وبنْيةً لفظ: استشهاد رياض الصلح (١٩٥١) فضلًا عن رفيق الحريري (٢٠٠٥) وسائر الشهداء السابقين واللاحقين من جهة، والاستشهاد بصفحات من **مقال الأَربعاء** من جهة أُخرى، ــ أَمّا بعد هذين الاستشهادَين، فقد طارت بي هواجسُ قلمك، ابنِ الجنوب، إلى دخيلةِ شلّال جزّين. فأَخذتُ أَتمثّله،

فأتأمّله، وأنا في ضبابيّات لندن، فأَلفيتُه سيّالَ شِعرٍ حزين، منهمرِ الرثاء، يبكي، هو أيضًا، على الوطن الذي لم نعرف كيف نستحقّه، فنفهمه، فنحبّ. ولكنْ ما لعلّه يعزّينا هو أن لبناننا يموت من غيرِ أن يموت فعلًا، كأن المعجزة اللبنانيّة، بسباعيّةِ أرواحها، هي من سلالة العجائب السبع والويلات السبع.

ذلك، في رأيي، مشهَدٌ لطبعيّةِ الحلم في مجرى كتاباتك التي ذكّرتْني، في ما ذكّرتْ، بمقالات آلان[٢] (Alain) وقد كتبها في الثلث الأَول من القرن المنصرم، فقال فيها أَندريه موروا (André Maurois) إنها تُعادل مأثورات مونتانيي (Montaigne) ومونتسكيو (Montesquieu). ولستُ أَغلو في الكلام إذا ذهبتُ إلى أَن مقالاتك تساوي، في نحوٍ ما، مقالات آلان، مع استقلالك عنه تاريخَ ثقافةٍ وجغرافيةَ وطن.

وكم طاب لي، في فرح المناسبة، ـ على غياب الفرح عن أَيّامنا اللبنانيّة، أَسيرةِ الضياع قسْرًا وشرًّا وغوائلَ إرهاب، ـ كم طاب لي أَن أرى إلى قلمك يجري من مقالة إلى مقالة لا يلهث ولا يتلعثم، بل ينطلق متنفّسًا ملءَ السجيّة وقد أَعطتْ، فأَغنتْ، فاغتنتْ، فاطمأَنّتْ، فأَلّفتْ أَربعائيّاتٍ متماسكة، متضامنة، في مقاماتِ جوار يحرِّر المقالة ممّا قبلها وممّا بَعْدها

---

(٢) مقالات آلان Les Propos d'Alain, Bibliothèque de la Pléiade, Paris, 1958.

فيما هو يرعى سنّةَ التواصل بين طوائف شَعْبها، على تعدّدِ فئاته، وتباعدِ موضوعاته، وعلى تفاقم حالاتٍ له في عبثيّةِ التصدّي والتعدّي والصراع.

هنا، برغمِ كلّ رغم، ثلاثيّةُ التفاؤل ـ ثلاثيّةُ الميم ـ وحدةُ انسكاب في نثرٍ صحفيّ خليقٍ بأَربابه من حيث اتّساق التركيب، وموسيقى العبارة، وانسجام الألفاظ، في تشدّد يولّد التجدّدَ الذي يفصح عن نفسه بقلمِ نفْسه لا بقلم سواه. فليس مِن تقليد عندك، وليس من اقتفاء، بل نبضُ قلب في ومضِ يراع، إلى تطلّع تشهد له، في طبقاتِ النصّ، حافظةُ معلومات تستذكر الغابر، فتُجاوزه تُجاور الغَدَويّات من خلال واقعيّات الآنيّ الحاضر في ما لها وفي ما عليها.

ولقد تبيّن لي، إذ أَنا في جوّ مؤلَّفك، أَنك تكاد تُعنى بكلّ جَللٍ من بعضِ أَحداث لبنان، وخصوصًا منجَزاتِ الصفوة من أَكابره ـ لبنان ال ١٠٤٥٢ ك.م.، ولبنان ملايين الاغتراب، وما بينهما ـ. فكانت همومك موزَّعة بين عالَمي لبنان الواحد، اللاموحَّد. وكنتَ، حيال هذه الازدواجيّة التي يتشابك فيها الإيجاب والسلب، حريصًا على هويّةِ قلمك اللبنانيّ الروح والاستقلال، العربيّ الأَصالة والأسلوب. فوطّنتَ كلمتك بوجدانِ أَرضنا، وإيمانِ سمائنا، وكنوزِ الأبيض المتوسّط، بحرِ حرّيَّتنا وحرّيَّةِ سوانا. فعبَّرتَ عنها بلسانِ جامعنا اللغويّ، الضادِيّ، المشترَك الذي أَشاد تاريخُه بضيافةِ الأَديرة اللبنانيّة له

وبحفاظها عليه في زمن التخلّف والانحطاط.

هكذا مضى قارئك سائحًا في بلاد الكتاب، مرحلةً فمرحلة، يتمهَّل إذ يتأمَّل. فكان القارئ، رفيقُ دربك، يطوي، في كلّ مرّة، مسافةَ مقالةٍ واحدة أَو مقالتين لا غير، حذَرَ أَنْ يرهقه التراكم فيقعده عن جِدِّيَةِ فعلِ القراءة؛ وهذا، في نظري، يساوي جِدِّيةَ عملِ الكتابة، أَو يكاد. حتى إذا انتهى القارئُ إلى الصفحات الأَخيرة، وجد أَنك استخرجتَ من العابر ما تسنّى لك من ممكنات الدائم، وأَنك استخرجتَ من الدائم ما تسنّى لك من ممكنات العابر. ثم استطعتَ، من خلال هذا وذاك، أَن تستطلع ما في العموميّ من شمول يحتوي معظمَ الخصوصيّ. فبلغتَ ما يقال له توحُّد الكيان، عامًّا وخاصًّا، في جدليّةِ الدوام والعبور.

وإذا أَجاز لي القارئ، اقترحتُ عليه أَن يرجع إلى أَربعائيّاتك، فيرى بأُمِّ العين والبصيرة ما بين دفَّتي الكتاب ممّا ذكرتُ في رسالتي هذه وممّا لم يُتَح لي ذكْره.

ولا يسعني، قُبَيل الختام، إلّا أَن أُشيد بافتتاحيّتك **قلبُ لبنان** (النهار، ١٩ - ٩ - ٢٠٠٧). ليتَ هذه الرائعة أُلحقتْ بالمجموعة؛ فهي تدلّ، في ما تدلّ، على أَن ثلاثيّة الميم قد استوت بك، في عِزِّ الكهولة، إلى المرتقى الذي قلّما تشرَّفتْه المقالة الصحفيّة.

أَخي سمير،

أُمسكُ عن المزيد؛ ولولا ذلك لأَلّفتُ في مقال الأَربعاء كتيّبًا برأسه. غير أَن العزيز سليم باسيلا، بثقافته المتأَنّقة، أَنَابَ عنّي فضْلَ قلمه في المسهَبة التي افتتح بها مجموعة المقالات.

ثم إخالك تعلم، في آخِرِ الأمر، أَني أَنتظر مقالتك كلَّ أَربعاء؛ مثلما أَنتظر، أَوَّلًا، افتتاحيّة غسان تويني كلَّ اثنين؛ ومثلما كنت أَنتظر فبتُّ أَفتقد، في كلِّ خميس، شجاعيّة الشاهد الشهيد جبران تويني؛ ومثلما أُنتظر، في كلِّ صباح، صياحَ ديك النهار ضاحكًا أَو عابسًا أَو بين بين.

خليل تقيّ الدين

جيلُ همزة الوصل

أشعر، وأنا إلى هذه المجموعة، بأني في معيّةِ خليل تقيّ الدين. فالتبادل بينه وبيني، في عمقيّاتِ الظواهر والبواطن، يجاوز بُعدُه صناعة القلم. القلم وحْده ليس قلمًا إلّا إذا جرى على ما يتخطّاها، في ما قبْله وفي ما بَعْد. هنا الزمن، روحًا وجسدًا، محرِّكُ فكرةِ شمول قد يختصر كتابًا واحدًا أو بضعةَ كتبٍ تؤرِّخ إجماليّاتُها سيرةَ أديبنا في ما لها وفي بعضِ ما عليها.

فكرة لا غيْر؟ لا، بل إنها فوق ذلك. إنها مغامَرةٌ. صراعُ نفس تريد أن تتحرَّر، فتحقِّق نفْسَها؛ ولعلّها تريد أن تحرِّر سواها أيضًا.

مدخل كتاب: **خليل تقيّ الدين، الأعمال الكاملة**، منشورات نوفل، بيروت ٢٠٠٨.

أَودُّ، في فرح المناسبة، لو يقارَب عالَمُ تقيّ الدين يقينًا منّي أن الأديب ليس بأديبٍ حقٍّ ما لم يكن له عالمُه الخاصّ ــ أو بعضُ هذا العالَم ــ في سعته أو في ضيقه، أو في كليهما بمعظم الأحوال.

مجموعةُ هذه المؤلَّفات رسالةٌ إلى صفوةِ أجيالنا الطالعة تدعوها إلى أن تقرأ كتبَ خليل تقي الدين؛ فلا يكفي أن يكون قرّاؤها من الأجيال التي عاصره أو عَرَفه بعضٌ منها كما عاصرتُه فعرفتُه. فهل يجد جيلُ شبابنا في تلك الكتب ما لعلّه يفصح عن شيء أو عن أشياء من حالاته النفسيّة والجسديّة، وعمّا إليها وما عنها، فيشعر جيلُ الشباب أن في المجموعة تقيّ الدينيّة صفحاتٍ هي، فعلًا، مِن صميمِ حياته، أم يشعر وهو يقرأها ــ هذا إن قرأ ــ كأنه في أحد المتاحف، مع أن عنوان الباكورة **عشر قصص من صميم الحياة؟**

هنا السِرّ. السؤال الكبير. والأرجح، عندي، أن سَوادَ ما اعترى جيلَ تقي الدين، وأَغلبَ مَن خَلَفه من أجيالنا، لم يكد يُقلق صاحبَنا وأترابَه لا في الكينونة ولا في المصير. ولستُ أدري لمَ لم يَقلق جيلُ ذلك القلم إلا في القليل، مع أنه ابتلى كثيرًا من الأزمات، فأَغضى عنها وأَغضى عليها، لم يكد يهتمّ بها ولا كاد يكترث لها، ــ أو ربّما كان ذلك هو أسلوبه أمام الصعاب.

يلوح لي، ولا بدّ من التكرار، أن مجموعة خليل تقيّ الدين رسالةٌ مفتوحة لا على المستقبل، بل إلى المستقبل، المستقبل القارئ. وما قصدي أنها تقرأ المستقبل... بل أَقصد أنها تودّ لو يقرأها بعضُ هذا المستقبل، لعلّه يقع، في أحيان لها، على ما يصله بها وقد تسلّمتْ ممّا قبْلها فسلّمتْ ما بَعْدها في تفاعلِ أخذٍ وإعطاء هما آيةُ التوارث المبدع، الحُرّ، الأصيل، ـ أو هكذا خُيّل إليها وإلى رؤوسِ عصْبتها في دار المكشوف وأخواتها في لبنان وبلدان الجوار.

لسواي الدرس والتحليل ـ والنقد ـ مع التعمّق في الموضوعات التي تبيِّن حقيقةَ المجموعة قصصًا وروايةً ويوميّات ومقالات، إلى آخِر ما فيها. أمّا أنا، فحسْبي أنها أَدّت ما أَمكنها عمله؛ فلم تقتصرعصْبتها على أن تكون جسرًا بين أجيال مراحل ـ جيل جبران، وجيل المحدَثين، فجيلِ الحداثة الجديدة، أمثالًا لا حصرًا، ـ ولكنها، إلى ذلك، اضطلعتْ بمهمّات البوتقة. فأَلهبتْ، وصهرتْ، فأَنضجتْ، فأَنجبتْ؛ فأَصبحتْ صنْوَ همزة الوصل في تنوّعٍ واطّرادِ تَعاقُب، وفي تعدّدِ مواهب وتجاوبِ طاقات. ولستُ أُفشي سرًّا إذا ذكرتُ أن خليل تقيّ الدين مال إلى طبيعةِ همزةِ الوصل، فتمرَّس بها حَرْفًا وروحًا، فأَصاب في ضُمْنيّاتِ فحْواها ما يُغْني النصَّ وما وراء النصّ.

سيرةُ خليل تقيّ الدين ـ كاتبًا، وموظّفًا إداريًّا، فسفيرًا،

فضلًا عن شبابِ النهج تعليمًا في الترجمة وأصولِ البيان، ـ سيرةُ تقيّ الدين مَسِيرةُ همزةِ وصْل. رحلةُ قَدَرٍ بَواطنُ وعْيِهِ صراعٌ بين همزتَي الوصل: الهمزة لفظًا وكتابة، والهمزة التي يتعذّر الإفصاحُ عنها، كأن في كلِّ همزةِ وصْل بَعْضِيَّةً من همزة قطع تُخرس اللسان، وتحبس القلم، فتقيّد الحرّيَّةَ تقييدَ فرْدٍ وجَمْع.

خليل تقيّ الدين إنسانُه وكيانُه جرأةُ مواقف في جسارةِ خطاب وجهًا إلى وجه، وخصوصًا في ساعاتِ رجوليّةٍ لم تُنشَر أمُّ مقالاتها في خواطر ساذج، مثلًا، وقد يكون السبب أنها مكشوفةُ الصراحة، عنيفةُ الانتقاد؛ ذلك كلّه مع شجاعة الاعتراف بالذنب في مقتضيات الحال، ومع أسلوبيّة الدماثة واللطف في الدواعي الدپلوماسيّة، أو اللادپلوماسيّة، العامّة والخاصّة.

خليل تقيّ الدين، منذ أوّلِ قصصه إلى أواخرِ ما أملى قُبَيل الرحيل، قلمُ حياة تقلّبتْ في حضاراتٍ للشرق وللغرب، فأفضت إلى شبْه حلقةٍ مفرغة. فكأن النهاية، على أقصى المرتجى، قصّةُ عبثٍ في عبثٍ إلى عبث. ولكن تقيّ الدين بقي، مع ذلك، يحبّ الحياة.

رسالة إلى دعد طويل قنواتي

سيرة إيمان يحاول الإله ويحاور الإنسان

لندن، في ١٢ آذار ٢٠٠٨

السيّدة دعد طويل قنواتي،

حمص ـ سورية

سيّدتي الكريمة،

قرأتُ مجموعاتك الشعريّة الثلاث: **حزمة ضوء، وحكايات شهرزاد الحمصيّة، وحصاد الأسئلة**، فتقلّبتُ في صفحات لك ربيعيّةِ النفحات انطوت ماضياتُها على ذكرياتٍ شتائيّةِ الغياهب، ما لبث يقينُ رجائك أن تخطّاها إلى مَشارفِ حرّيّةٍ في كرامةِ مَصير. فاستخلصتُ من روحِ قصائدك سيرةَ إيمانٍ مثلّثِ الإبعاد يحاول الإلهَ، ويحاور

منشورات وزارة الثقافة، دمشق ١٩٨٦، ١٩٩٩، ٢٠٠٦.

الإنسان، فيجاور، عبْرَ شهرزاد وعمر الخيَّام، عوالمَ كونيّةَ المضمون بدت، في أَوّلِ أَمرها، كأَنها في حدود المعلوم؛ ثم اكتُشِف أنها مغلَقةُ المجاهل في معظمِ المواقف والأحوال.

ولاح لي، من خلال ذلك، أن الطفولة ـ مَنْبتَ الأمومة وغَرْسَها في شيء معًا ـ قد أَرضعتْكِ إذ أَرضعتِها من صدرِ إيمانك، هذا، المثلَّث. فكأَنّ الثالوث ـ ثالوثَكِ وثالوثَ الآخَرين أيضًا ـ يجتمع فيه الدين والدنيا على رجاءِ آخِرة لا تخلو مِن هاجسِ الموت الذي ربّما اقترن عندك، وربّما عند سواك، بفراغِ الرحيل ووحشةِ القبور، كأنْ لا مثوى للراحلين الأحبّة أوفى من قلوبِ الأحبّة الأحياء.

فما هذا التفاؤل المتشائم الذي وجدتُ في بعض قصائدك إذ رأَيتِ الدمَ على وجوه كانت قريبة منك فأَبعدها عنك خَتمُ الأَجل؟ قلتِ، في ما قلتِ، «في خوفِ مَنازلنا نُدفَن» و«مشطوبٌ مسقطُ أرؤسنا من تذكرة الميلاد». إلّا أنك، في اللحظة الشِعريّة، هي نفْسها، أصبحتِ أنشودةَ فرحٍ بطفل المذود. ثم سألتِ ما هذه الحريّة «التي ترضى بالنير ولا شكوى؟» فانعطفتِ على الوطن تقولين «أَفنى وحُبّكَ لا يموت.» ثم اتجهتِ مِن حرَمِ الوطن إلى حرمةِ إنسانه فاستعنتِ عمرَ الخيّام تقولين له «كأَنكَ أَوجزتَ الإنسان.»

هنا هبَّتِ الأمومة تناديك وقد خاطبتِ صُبحيَّةَ ابنك المسافر «وابتدأت نهاري/ برشّاتِ ورْد/ تبثّ سحائب عطر/ وتسخو بوعد.»

جميلٌ هذا الحنوّ، وخصوصًا أنك أَتبعتِيه قولَك في حفيدك الأوّل: «بورك الإسكندر المخبوء في أثوابِ طفل» يذوب فيه حنانٌ ربّما غلب صولجان الإسكندر. ومن الطفولة في المذود استمدَّتْ أنفاسُك الشجاعةَ التي بالإيمان تُواجه القياصرة. إيمانها، هذا، كلمةُ حُبّ في صيغة المفرد، فصيغةِ المثنّى، فصيغةِ الجمع: «شجرةً صرنا/ سويّة ننمو.»

النموّ، هنا، فحْوى مَصير. أيّ مصير؟ مصير الأبوين الأوَّلين، أُسرةً، فأُمّةً، فأُممًا تزكو وتتكاثر. هكذا التاريخ. هكذا الشِعر. هكذا يُترجِمُ الزمن إلى لغةِ الأبد، أبدِ الديمومة التي كلما تحرَّكتْ ثبتتْ، وكلما ثبتتْ رسختْ.

النموّ، هنا، مغامرةُ الإنسان والكون في جدليّةِ نزاع لا ينتهي؛ سيرةُ صراع في صميم الماهيّة والوجود.

إلى ذلك كلّه أو، في الأقلّ، إلى شيء منه، ربّما أَفضتْ بالقارئ موحِياتُ قلمك. كنتِ فصرتِ. إنّ طموحك عميقُ الصعود ــ والمهاوي. إنّ قلمك سليلُ إيمانك، سلسبيلُ حياة.

أَحسنتِ أَكثرَ ما أَدَّيتِ. فشكرًا لك وقدْرًا. إلى المزيد.

البلد الصغير
الشعب الكبير

شعرتُ، وأنا في غُمقيّاتِ البلد الصغير، بأَني كيانٌ مهدَّد. إنسانٌ مهدَّد. بيانٌ مهدَّدُ الحرف والروح. كلُّ ما فيّ، كلُّ ما لديّ مهدَّد. أَحيا على رجاءٍ لَعلَّ. أَتقدر الطفولة، ببراءةِ جغرافيتها وبعضِ تاريخها، أَن تنقذني يومًا ما؟

متى؟ كيف؟ أَين؟ مَن؟ ماذا؟ إلامَ؟ لستُ أَعرف المهدِّد وإن حسبتُ أَني أَعرفه. تلك قوّته. لو كنتُ أَعرفه لربّما كشفتُ سرَّه، أَو شيئًا منه في الأَقلّ. حيلةُ المهدِّد جُلُّها في سِرِّه الذي أَعرفه ولا أَعرف. معرفتي للسرّ – يا ليت – عقلُ المعرفة وقلبُها معًا. الطفل الذي هوى من علوّ عشرة أمتار فلم

Petit Pays, Narration **Rasha al Ameer**, Direction artistique **Randa Abdel Baki**, Illustrations **Danielle Kattar**, **Dar al Jadeed** 2008, Beyrouth.

يُصَب بأَذَى يُذْكَر، على حسب ما أَوردت الصحف، ربّما أَنقذتْه براءةُ لاوعيه. اللاوعي خلاص الطفولة ولو إلى حين.

الحشرة، كالآدميّ، مهدَّدة. لكنها، طوْلَ تاريخها الذي تقدَّم التاريخَ، تمكّنتْ من قدَرِ الزمان وقضاءِ الدهر. الحشرة، كالطفل، قوّتها في براءةِ لاوعيها. ذلك إنْ صحّ أَن للحشرة غريزةَ مَنطقٍ مجهول، مجهول من كلّ ما سواها، حاشا موقف الرؤيا عند الشاعر السفير سان جون پرْس (Saint-john Perse) حيال صراع الأمم وزوال التاريخ؛ وفي مقابلة ذلك ديمومةُ الحشرة مذ قبْل التاريخ إلى ما بَعْد أَجيال الأمم والحضارات.

... ما أَروعَ المَطلع في آياتِ **البلد الصغير**، البلد العريق الذي قلّما صان حقوقَ إنسانه جغرافيّو العظائم وقد تَغنّوا بمجدِ أَساطيره ولم يُعنوا بقصدِ مَعانيها! وربّما كان مِن أَوفاها قصّةُ أَلْبي (أُسمّيه قلبي) وثريّا، ومِن خلالها سيرةُ لبنان، البلدِ الصغير، سليل الشعب الكبير، وأَحيانًا الشعب الكسير، شعبنا الذي طالما هبَّ فانتفض يريد أَن يحيا برغم جنون الحرب ومجرميها الأَقارب والأَبعدِين. غير أَن البلد الصغير وجد أَن صورته في المرآة ــ صورةَ حلمه ــ قد اختفت بعد ما حُطِّمت المرآة؛ ومع ذلك لم يفقد شعبنا كلَّ مؤمَّلات الخلاص اعتمادًا منه على بَركة الجنّيّات الحارسة التي حنتْ عليه فأَرضعتْه وهو في المهد، فتصوَّر أَنه تغذّى بحليب السباع! وما لبث طويلًا حتى أَيقن أَنه مَركز للثقل العالميّ في عزمِ وجود يتحدّى العدَم.

وربّما كان في أَوهام البلد الصغير أَنه من لزوميّات الدنيا في خيالٍ مسكونيّةٍ له يتفاعل فيها الشرق والغرب فضلًا عن الجنوب والشمال، كأَنما الكون بأَسره رهينُ البلد الصغير، البلد الواحد في الكلّ مِن أَجْل الكلّ في الواحد مفردًا وجمعًا ومنتهى جموع.

يا لمرض العنفوان وقد استشرى، فانتشر، فأَمسى وباءَ البلد الصغيرا فتمثَّل له أَنّ حكْم القدَر ومشيئة البشر زواجُ سعدٍ منجبٍ يتحقَّق فيه طموحُ الحياة عند الحبيبَين، قلْبي (أَلْبي) وثريّا، وإنْ أَعياهما أَن يفسّرا الحبّ حلْوَه ومُرَّه وبيْنَ بيْنه.

الكتاب ـ **البلد الصغير** ـ قصيدةُ نفحات. كلُّ نفحة قصّة. كلُّ قصّة روحُ شعب في جسدِ أُمَّته. روح وجسد؟ إذًا اثنان في واحد هو أَوّلُ مفاتيح التكوين: الزواج.

وددتُ لو أَسترسل في تلك النفحات أُفشي بعضَ أَسرارها. لكنْ أَيجوز أَن أَكون إليها أَسبق من القارئ فأَحرمه فرَح اكتشافه لها نبذةً في إثر نبذة؟ غير أَن تَحفّظي لا يمنعني أَن أَتذكّر جراحًا نزفتْ، ثم نَزفتْ، ثم نزفتْ منذ حرب لبنان ١٩٧٥ إلى ما بَعْد، فلم تؤْسَ مقاطعها إلى اليوم. فهلعَ الضميرُ، ضميرُ لبنان، خوفًا على مستقبل السهل والجبل، وتردَّدَ حذرًا من البحر والجوّ كأَنهما يسهّلان أسباب الهجرة والفراغ.

ولقد أُضيفَ إلى قاموس الطفولة، عندنا، مفرداتُ الحديد والنار، إذ استوطن تقاليدَنا كلاشنكوف وأَرْبِي جي والمدفعُ عيار ١٥٥ وقنابل العناقيد والصواريخ، إلى سائر ما في مصطلحات الردى من ذخائر الحقد والانتقام خاصّة وعامّة. فكان منها جمعاء، ومِن سواها أيضًا، مشروعُ دائرة للمعارف جديدة تبغي أَن تَخلف دائرة المعارف البستانيّة الخير والسلام. فيا له من مهرجانٍ إرهاب وخراب!

ذلك كلُّه والبلد الصغير قد اضطرم فأَوجَسَ يضطرب في أَرَقِ الحيرة وقلقِ الضياع، لا يدري كيف يقول للحرب: لا، وللموت: لا، ولسلبيّاتِ قدَره: لا. فأَمسى لبنان في عطلةِ أَعياد لا وجود لها. كلّ شيء مغلَق: الأَبواب مغلَقة، القلوب مغلَقة؛ ومُغلَق كلُّ ما بين هذه وتلك من امتدادِ مسافات تفصل الإنسانَ عن آخَره وكأَنهما رمزٌ لعداءٍ متوارَثِ المصير.

هكذا لم يبقَ أَمام الحبيبَين، قلبي وثريّا، إلّا الاغتراب انزعاجًا إلى ممكناتِ عمل واستقرار. لكنْ إلى أَينَ؟ متى؟ كيف؟

سؤالُ البدء سؤالُ الختام، والعقبى في مُقامِ يتيمِ الأَبَوين. فماذا سَلِمَ من البلد الصغير؟

لم يَسلم إلّا طعم العسل في قبلة الحبيبَين، لا في كتاب

سانت إكسوپري **الأمير الصغير**[٢]، بل في كتاب **البلد الصغير** الذي تألَّقَ بفرنسويّةِ رشا الأمير، وبفنّيّةِ رندة عبد الباقي، وبلونيّة ريشةِ دانيال قطّار. فانسجم في الكتاب سحرُ البيان والرسم والإخراجِ في أرقى مَبالغ الصنع والبدْع والإتقان.ثم إن الأظهر في سجايا الفوارق بين الصغيرَين **الأمير والبلد** ـ ولا مجال، هنا، للتشبيه ـ هو أن **أمير** سانت إكسوپري، مع إنسانيّةِ حاله وعالَميّةِ انتشاره، يبدو أجنبيًّا عن طبيعةِ **البلد الصغير** أفي الشكل كان ذلك أم في استقلال المضمون.

الأمير الصغيرمسقطُ رأسه الصحراء، ومَوطنه العالَم.

البلد الصغير مسقطُ رأسه ــ معضلتُه ــ العالَم، ومَوطنه لبنان.

---

(٢) Antoine de Saint -Exupéry, Le Petit Prince.

مدخل إلى مذكّرات فؤاد بطرس

فؤاد بطرس إنه صنْعُ نفسه سيرةً في سِفْر مذكّرات. مِن الأَلف إلى الياء خَطَّ أَبجديَّةَ حياته روحًا وحرْفًا. خطَّطَ لمسيرته. وعاها. تَأَهَّب لها. حاول. تأَمَّل. عزَم. أَقدَم. من المدرسة إلى الجامعة، فإلى وظيفةِ أَيَّام العشر، فإلى القضاء، فالمحاماة، فإلى السياسة ومناصب الحُكم، تلك رحلة العمر. فكان منها ما قد كان وما لا يزال معظَمُ أَثره وتأثيره إلى اليوم. حتى إذا تقاعد «المعلّم»، مثلما بات يلقَّب، لم يتقاعس، بل استوطن شبابَ التسعين، لم يفتأْ يدأَب، يجدّ، يتمثَّل، يتعالى ثابتَ الخطو على أَرض الواقع. وكْدُه أَن يبقى عينًا تُراقِب، وضميرًا يحاسِب في كبيرة وصغيرة. نهجُه وَمْضُ أَلمعيَّةٍ تكتنهُ

مدخل كتاب فؤاد بطرس: **المذكّرات**، منشورات دار النهار، بيروت، ٢٠٠٩.

فحْوى المواقف والأَحداث، تُحاور، وقد تُجاور، لكنها لا تُجاوز حدودَ جغرافيتها ومنطقَ التاريخ؛ إذ تأبى أَن تُخاطر، فالمغامَرة غير واردة في جدول أَعمالها.

فؤاد بطرس هو، في جوِّ مذكِّراته، كتابٌ برأْسه. لبنانيٌّ أَصيل يتذكَّر، فيذكِّر. يعتمد، في الأَكثر، صيغةَ المثنّى. روحُ دستوره أَنا والإنسان الآخَر، وإلّا فلا آخَر ولا أَنا. كلا الاثنين سِرُّ معيَّةٍ هي المرقاة إلى صيغة الجمع، فصيغةِ منتهى الجموع تفاعلًا متكاملَ العناصر على مستوى الإنسان أَفرادًا وجماعات ــ أو هذا في مرتجى الكينونة والمصير.

نحن هنا، عند مدخل المذكِّرات البطرسيَّة، في حضرة المَرْجع الثقة والعهد اليقين. إلى مثيل ذلك ــ وما أَنْدَرَه! ــ نحتاج، بغيةَ التنسيق، لا التوفيق، بين المتناقضات في مؤتلَفٍ يصون، ما أَمكن، وحدةَ الوطن، سلامَه، سلامتَه نصًّا وشخصًا.

مذكِّرات فؤاد بطرس، وقد انطلق فيها من سيرته إلى سيرة لبنان، في مدى الخاصّ والعامّ إجمالًا وتفصيلًا، ــ مذكِّرات بطرس، هذه، شهادةُ صدْقٍ موضوعيَّةُ التقصّي، منطقيَّةُ التعليل والاستنتاج، مترابطةُ الفصول، في عفويَّةٍ تلاحم وانسجام، وسْطَ مجرى الأَحداث إيجابًا، أَو سلبًا، أَو بين بين. وربّما بدا لي، في هذا النحو، أَن حكمة المؤلِّف ارتأَت، في أَحيان، أَن تراعي مبدأَ التوازن في سيرها على نهج ٦ و ٦ مكرَّر، عند إصدارها

أَحكام البراءة وأَحكام الذنب على بعض «أَبطال» المسرحيَّة المضحكة المبكية.

هكذا قرأتُ فرافقتُ، بين سطور **المذكَّرات**، منجَزاتِ رجلِ دولة اعتنق لبنان، وعاصر نصفَ قرن من تاريخنا الحديث، فشارك في مراحل منه حاسمةٍ مشارَكةً مسؤولة توخَّى بها، وهو القاضي السابق، ما لعلَّه يكشف الحقيقة، أَو ما يعتقد أَنه الحقيقة، رجاءَ أَن ينصف أَهلها، ليس يخفى على فطنته عمقُ الفجوة، أَو الفجوات، ما بين الحقيقة والواقع في بلدٍ صعبِ المراس جُبل سوادُه على المخالَفة والتحدّي في ما قد يُقال له «صراع الأَضداد». فأَدرك صاحب **المذكَّرات** أَن الصراحة الصحيحة هي تلك التي قلّما تَشتر عُرْيَها وعُرْيَ سواها. وأَدرك، أَيضًا، أَن قوَّة لبنان ليست في ضعفه كما قد يُظَنّ، بل هي، مِن خلال جدليَّة التنوُّع والتعدُّد، في ما لا يفتأ يثير بلبنانِ الأَمس واليوم والغد كثيرًا من أَزمات التعطيل والتخريب ومن معجزات الحيويَّة والصبر والاحتمال.

ولقد تعلَّم فؤاد بطرس فعلَّم أَن السياسة، التي لا تبني المستقبل إلّا على الماضي، سياسةٌ بلا مستقبل، وأَن السياسة السليمة تَرِثُ السلف وتستعير الخلف، أَو يصبحَ لبنانُ شبْهَ سلعة في سوق السياسة الدوليَّة، أَو الإقليميَّة، أَو المحليَّة، وفي لعبةِ تداخلِ المصالح وتشابكها في ما أَمسى إِمرًا مألوفًا لدى أَقطاب العصر.

حيال هذا الإِمر، ينبغي التذكير بأَن فؤاد بطرس طالما نبَّه إلى أَن سياسة لبنان الخارجيَّة قلَّما يمكن فصلها عن سياسة لبنان الداخليَّة خوْفَ أَن تضطرب أَحواله، فتتفاقم أَزماته، فلا تلبث الشياطين أَن تخرج من عنق الزجاجة وكأَنْ لا خلاص.

فؤاد بطرس متشائم في مذكِّراته وفي أَغلب حالاته ومواقفه؟ ربَّما. لكنَّه لم يبقَ متفرِّدًا بالتشاؤم الوطنيِّ بعد ما أَخذ الأَكثرون يجارونه، وخصوصًا في «سعادة» هذه الأَيَّام. فلمسوا أَنَّه بنى مجمَلَ أَعماله على أَساس الواقع، لا على غيبيَّات الأَسطورة؛ فعوَّل على العقل والقلب معًا، ونبذ دواعي الغرائز والأَهواء.

هكذا رأَى فؤاد بطرس. هكذا قال. هكذا فعل. فاستحقَّ ثقةً تقارب الإجماع لا في لبنان فحسب، ولكنْ، إلى ذلك، في أُمَّهات المراجع العالميَّة التي عرفته واختبرتْ مزاياه.

فوجب له الشكر، ولمذكِّراتِهِ القدْر والعرفان.

سعيد عقل

قمّة شعر وروعة نثر

قمّةُ شِعر وروعةُ نثْر اسمًا وشهرةً مِلءَ تاريخِ أَدبٍ كبيرٍ، غَدَويِّ التأَصُّل في طُموحِ التراث.

شِعْرُنا والنثر قَبْل سعيد عقل، وفي أَثناءِ سعيد عقل، فمِنْ بَعْد.

حسْبُ الشِعر ونَثْرنا. حسْبُ سعيد عقل. حسْبُ لبنان.

هنيئًا لديوانِ العرب، ولجوهرِ النثر عِنْدهم، وإنْ لم يَرْضوا عن سعيد عقل، مع إقرارهم بعبقريّته وإعجابهم بعوالمها، وإنْ هو عارَضَهم بمَنْطقِ اللّغة يؤيِّد قاعدةَ «الفِظْ واكتُبْ» ليس يرضى، إلى ذلك، بأَبجديّةِ الضاد كلمةَ حضارة.

لمناسبة الاحتفال بوضع الحجر الأساس لمركز سعيد عقل الثقافي في زحلة، في ٩ أيار ٢٠٠٩.

لكنّ كلمة الحق، في مشارق القيَم ومغاربها، توّجتْ سعيد عقل جبّارَ شعر ونثر في مهرجان التفوّق في جبل الأولمپ، أَوْجِ العمالقة، مَقامِ العبقريّات.

عاش الشاعر الملك.

كميل أبوصوّان

في لبنان الإنسان والكلمة

صديقي الكبير كميل أَبوصوّان،

فرِحتُ بك مكرَّمًا؛ وبمنجَزاتك هنَّأتُ لبنان.

مِلءَ الوطن حبًّا أَنت، في ضميرِه، رمزٌ للتعدُّد تنوّعًا في وحدةِ كيان وشجاعةِ مَصير، وسْطَ أَجيال من الزلازل وغوائل الأَحوال.

كلاسيكيٌّ محافِظٌ إنسانُك وإن تقلَّبتَ في عصرِ ثورة وعصْفِ تغيير. سِيرتُك التي التزمتَ فيها ثقافةَ الكلمة روحًا وجسدًا، كم أَفصحتْ عنها موحِياتُ قلمك، بذاتيَّته وبموضوعيَّته، في عمقيّاتِ أَصالةٍ وطُموحِ أفقيّات.

رحلة العمر، عندك، هي الكتابة سَفَرًا في الدرجة الأُولى، أَو

في تكريم لكميل أبو صوّان أقامته جامعة الروح القدس ـ الكسليك في أيار ٢٠١٠.

لا مسوّغ لمقتضيات الوجود. أمومةُ كتابتك الفرنسويَّةِ اللسان، على مَشرقيَّةِ بيانها ولبنانيَّةِ نفَسها، أمومةُ عالَم لا تني قلميَّتك تكوِّنه، فتلدُه، فتبْنيه تؤدِّيه على مِثلِ صورتكَ، فتُريه أَن خير الناس، في هذا المستوى، هو مَن ترجم نفْسَه إلى آخَر نفْسه فبقي حُرَّ نفْسه. وربّما استطردتَ، هنا، فابتهلتَ إلى الخالق تقول: اللهمَّ نجِّني من ثقافة الجهل؛ إذ علَّمتْك الحياة أَنها، مَسْرحيَّةً، فصولُ هزليَّة، وأَنها، واقعًا، فصولُ مأساة؛ كأَنما الحياة، في حقيقتها العارية ــ خلافًا للحسناء العارية ــ قلّما تجذب أَحدًا، إذ أَمسى قمرُها موطئًا لروّاد الفضاء بعد ما كان القمر عبْقَرَ موطنٍ لشعراء الدنيا والآخِرة؛ فبات إنسانُ العصر أَسيرَ حضارةِ السآمة والضجر.

الكميل الأَعزّ،

كم يطيب لي، بَعْد هذه المُشهَبة الافتتاحيَّة العامَّة، في قدْسِ الضيافة الكسليكيَّة الجامعيَّة المرحِّبة، ــ كم يطيب لي أَن أُقاربك، مرّة أُخرى، في خواصِّ جدول أَعمالك طوالَ ثلاثة أَرباع القرن:

من دفاتر الشرق Les Cahiers de l'Est، وربّما ممّا سبق، انطلقتَ تلبِّي دعوة الكلمة وقد شُغفتَ بكتاب **النبيّ** The Prophet لجبران خليل جبران، فنقَلتَه عن أَصله الإنكليزيِّ اللسان إلى عفويَّةِ لغتك الفرنسويَّة. فكان لتلك الترجمة وقعُ

الرواج لدى جمهور القرّاء، وخصوصًا في البيئات الفرنكوفونيَّةِ الثقافة. فتعدَّدتْ طبعات النبيّ، ترجمة أبوصوّان، وما تزال دار النشر كاسترمانْ Casterman باريس وبروكسل تعيد إصدارها الرائعة الجبرانيَّة ــ الأَبوصوَّانيَّة منذ ١٩٥٦.

وإلى ذلك أَسَّستَ نادي القلم في لبنان وقد أَردتَه عضوًا في أُسرة نادي القلم الدوليّ. فكان لعالَميَّةِ علاقاتك العامّة ولصداقاتك الدوليَّة الخاصَّة تمامُ الفضل في هذا الميدان. فانتخبك أَعضاءُ النادي رئيسًا له مزمنًا، أو شبْهَ مزمن، إن جاز التعبير. فكانت رئاستك لنادي لبنان خير أَيَّامه الداخليَّة والخارجيَّة؛ وكانت جلساتُه الشهريَّة ملتقى الأَكابر أَعضاءً وضيوفًا.

وإلى ذلك، أَيضًا، اضطلعتَ بعمل الكتاب السنويّ لمهرجانات بعلبك الدوليَّة في أَخصبِ مواسمها. فانطبعتْ مجلَّداتك البعلبكيَّة في ذاكرة الهياكل والأَعمدة الستّة، وفي أَمانة المجامع وتراث المكتبات.

وإلى ذلك، أَيضًا وأَيضًا، كان سِفْر **الهندسة اللبنانيّة من القرن الخامس عشر إلى القرن التاسع عشر**. ثم كان سِفْر **الكتاب ولبنان**. ثم كانت ولايتك على **متحف نقولا إبرهيم سرسق** في بيروت؛ فنهضتَ به، فأُثِرَ عن ولايتك أَنها أَلمعيَّةُ مبتكَرات شهدتْ أَنك وصَلتَه بحضارة المتاحف، عِلمًا

وفنًّا، في عواصم الثقافة ومَعالم الإنسان.

ثم كانت سفارتك الأونيسكويَّة التي نشَّطتْ خدماتِك فيها متانةُ صداقاتك الدوليَّة وسعةُ خيالك المبدِع في ما أَعَزَّ لبنان المقيم والمغترب، فخفَّفَ عليه ولو في حينِ انفراج مِن دهره تلْو حين .

ثم كان، بَعْد الأونيسكو إدارةً وسفارة، ما أسمّيه وصيَّة كميل أَبوصوَّان: كتابُ خمسمئة صفحة جمعتَ في رِحابه أَهلَ بيتك من الأَجداد إلى الحفدة، فأَردتَه حضورًا مدوَّنًا ومصوَّرًا لعهود هذا البيت التاريخيِّ العريق في وثائقِ انتشاره بين الأَراضي المقدَّسة وجبال لبنان وقصر فلُرنْس الملكيِّ في جنوبيِّ فرنسة. وأَبى بَرُّك ربَّ البيت، الوالدَ نجيب أَبوصوَّان، إلّا أَن تخصَّه بالقول الرئيسِ في مَقام هذا الكتاب. فأَوردتَ مآثرَ رجوليّته أَبًا مؤَسِّسًا، وسَيفًا صارمًا، ومَرجعَ قضاء وعدالة، عاش في جلالِ السنديان ومات في جلاله.

تلك، في ما تبدَّى لي، خلاصةُ موسوعتك التي ضمَّتْ، في كثرةِ ما ضمَّتْ ـ فضلًا عمّا سبق ـ، سكّان مكتبتك مطبوعاتٍ ومخطوطاتٍ هي في ذخائرِ القِيَم.

ولا يغيب عن الذاكرة، ههنا، التحفُ الأَثريّة التي جمعتها على مَرِّ السنين، فأَهديتَها إلى متحف أَجان Agen وفاءً منك لبَركة الأُمّ ـ أُمِّك ـ التي وُلِدَتْ في تلك المقاطعة.

أمّا قمّةُ آياتك، في نظري، فهي أَنك اعتنقتَ لبنان في حقّ جغرافيته ومَنطقِ تاريخه وإن لم تولَد أُسْرتك في دياره. لكم شهدتَ لموطن الأَرز! لكم شاركتَ في بنائه! ذلك مِن فضلك القوميّ الموروث إذ وُلد فيك لبنان قبلما وُلدتَ؛ فقدَّرتَ النعمة، خلافًا لبعض الذين وُلدتْ أصولهم في لبنان، ولكنْ لم يولَد فيهم لبنان. فتمتَّعوا به في حرِّيَّاتِه وأَغلبِ مميِّزاته، فاستثمروه، وحاولوا أَن يُقسِّموه ليقتسموه، وما انفكّوا يحاولون. فصحَّ فيهم أَنْ إذا كان المال والسلطة صديقَي لبنان في مواقف التجرُّد والكرامة والسخاء، فإنَّ المالَ والسُلطة عدُوَّا لبنان في الانتهازيّات العنتريَّة التي تتذرَّع بشعار الوفاق الوطنيِّ لا تريد أَن ترى فرقًا بين الوفاق والنفاق.

أَمّا وأَحوالُ الوطن على ما هي عليه، فقد وجب أَن نعي، أَنت وأَنا وسوانا، أَن لبنان اليوم رهينُ الثلاث: الجمّيزة والبسطة والضاحية الجنوبيَّة. مَن رفضَ هذه الجغرافية فليركبِ البحر.

عزيزي كميل،

لا يسعني، في ختام هذه الرسالة، إلّا أَن أَذكر وشائجك الوطنيَّة والأَهليَّة والعقاريَّة بقضيَّة فلسطين، فأُوجِزها بالسؤال والجواب التاليَين:

س : إلى متى تبقى فلسطين قضيَّةً بركانيَّة؟

ج : إلى أن يموت الذئب ويفنى الغنم!

تحيَّة الصداقة والاعتزاز.

فهرس

س وج

مداخل ورسائل منوّعة

السؤالُ قدرُ الجواب

خليل رامز سركيس

ISBN 9953-11-038-7